أسس دعوة القرآن

(الأسس العقائدية لشمولية الإسلام)

(يقين بالله – عبادة خالصة – مرجعية واضحة لكل مناحي الحياة)

د. كمال الدين يوسف محمد جعفر

1992

المقدمة

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلدْ ولم يولدْ ولم يكن له كفوا أحد، سبحانه وتعالى لا تدركه الأبصارُ وهو يدرك الأبصارَ وهو اللطيف الخبير، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، هو الأولُ والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيءٍ عليم، هو الملكُ القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحانه وتعالى عما يشركون.

الحمد لله **رب** العالمين: الخالق والقيوم للسماوات والأرضين. مجيب دعوات الداعين، وكاشف كربات المستغيثين، وغافر خطايا المستغفرين. الآمر بالشرع لمنهج الحياة وشعائر الدين.

الحمد لله الذي لا **إله** إلا هو: نصفه بالكمال المطلق وننزهه عن كل نقص. له يسجد ما في السماوات وما في الأرض طوعا وكرها. إليه يلجأ المؤمنون، ويستغيث به المستغيثون، يعبدونه بالحب والذل فيرجون رحمته ويخافون عذابه ويتحاكمون لشرعه.

الحمد لله الذي أنزل الكتاب بالحق ليعبده العابدون مخلصين له الدين، لا يبتغون إلا رضاه وجنته يوم الدين، ولا يتحاكمون إلا لشرعه طلبا للحق والطريق المستقيم في الدنيا والآخرة.

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، محمد بن عبد الله الأمين. نشهد أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الله به الغمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين. فاللهم صل عليه في الأولين، وصل عليه في الآخرين، وصل عليه في الملإ الأعلى يارب العالمين. اللهم أوردنا حوضه، وأدخلنا مدخله، واسقنا من يده الشريفة شربة هنيئة لا نظمأ بعدها أبدا .

أما بعد .. فإن معرفة الله وتقديره حق قدره، والرضى به ربا ينفع ويضر، وربا يشرع شعائر الدين ومنهج الحياة، والرضى به إلها يُعظم ويُعبد ويُحب ويُتقرب إليه بالشعائر واتباع شرعه والسير في الحياة على منهاجه ودينه على ما جاء به نبيه ورسوله محمد ص – هي دعوة القرآن ورسالة الإسلام، وهمّ كل الدعاة والمصلحين. ولتوضيح هذه الرسالة أقدم هذا البحث، لعل الله أن يفتح به قلوبا ويشرح به صدورا، والله أسأل أن يتقبله مني إن أصبت وأن يغفر لي خطئي إن أخطأت.

المشكلة:

كانت القرون الخيرية الأولى تفهم دعوة القرآن من قراءتهم له مباشرة. ولكن بعد هذه القرون، وبصرف النظر عن الأسباب، بدأت المسميات والمعاني المقصودة بمعظم مصطلحات العقيدة في الخفوت، فبدأ معها

خفوت الفهم للقرآن. وبمرور الأجيال انحصرت مصطلحات العقيدة في معاني ضيقة ضيعت من المسلمين شمولية عقيدتهم وإسلامهم، مما أدى في النهاية إلى ضياع خلافتهم وانحسار دورهم في الحياة كخير أمة أخرجت للناس. وإليك بعض المصطلحات كما يمارسها قطاع كبير من المسلمين الآن:

1- لفظ الجلالة: "**الله**"، لم يعد في ذهن بعض المسلمين عَلماً على ذات الخالق الذي تقر به الفطرة بل خلقت عليه، فلا يسعها إنكار وجوده سبحانه وخلقه للكون ومن فيه، فأصبح وكأن هناك حاجة لإثبات وجوده سبحانه، فأخذ المخلوقون من العدم في إثبات وجود الخالق، سبحانه الأول والآخر والظاهر والباطن، في كتب علم الكلام أو الفلسفة، والتي تفترض أن الأصل هو العدم فتحاول إثبات الوجود لله الواجد سبحانه. هذا برغم أن البشرية بدأت بنبي هو آدم عليه السلام، والرسل جميعا بدأوا دعوة الناس لمعرفة الله وعبادته مباشرة، الذي يقرون بوجوده وبخلقه لهم وللكون من حولهم، وذلك لأن الرسل يعلمون أن الأصل هو الوجود، وأنه لا يسع أحدا إنكار وجود الواجد سبحانه وتعالى.

2- كلمة "**الرب**" انحصرت في معنى الخالق، بحيث إذا دعا القرآن الناس ألا يتخذوا مع الله أربابا ظن المسلمون أنهم قد وفوا دعوته حقها عندما اعتقدوا أن الله هو وحده الخالق. واقتضى ذلك أن إبليس مؤمن لأنه قال: {**رب فأنظرني إلى يوم يبعثون**} الحجر36، وأن فرعون ادعى أنه خالق شعبه حيث قال: {**أنا ربكم الأعلى**} النازعات24. وأدى ذلك إلى أن المسلم والمشرك سيستطيعان الرد على أول سؤال في القبر "**من ربك ؟**" لأن المشرك يعتقد أن خالقه هو الله {**ولئن سألتهم: من خلقهم ؟ ليقولن الله**} الزخرف87.

3- كلمة "**الإله**" صارت مترادفة مع الصنم أو الوثن فقط. فإذا دعا القرآن الناس ألا يتخذوا مع الله آلهة أخرى، ظن المسلمون أنهم غير مقصودين بهذه الدعوة لأنهم قد اعتزلوا الأصنام فعلا، ولكن ما زال فيهم من يدعو ويستغيث بالمقبورين، وما زال فيهم من يولي وجهه شطر مناهج الشرق أو الغرب ويرى فيها النجاة والحلول لمشاكل قومه، وما زال فيهم من يطلقون البخور للفراعين يبتغون عندهم العزة، ويرونهم فوق المساءلة، ويسْمون بهم فوق الناس.

4- وكلمة "**العبادة**" اقتصرت على أداء شعائر الدين، فصارت بذلك جزءاً من الدين ولم تعد شاملة للدين كله، واقتضى ذلك وقوع المسلمين في الحرج بسبب قول الله تعالى: {**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**} الذاريات56، فقد أصبح لزاما على المسلم ألا ينقطع عن آداء الشعائر من صلاة وصيام وغيره، وإلا ما قام بما هو مخلوق له. فلم يعد السير على منهج الله وشرعه في كل أمور الحياة عبادة، فانفصلت الدنيا عن الدين، وأصبح المسلم يرى أن حسن التعبد في ترك الدنيا والإعراض عنها كما هي عقيدة

النصارى، وأن العمل لإصلاح الدنيا بالدين لم يعد عنده من الدين. من هنا صارت حالة المسلمين مهيأة لدعوة العلمانيين الذين يدعون لفصل الدين عن الحياة، فصالوا وجالوا وحققوا أكثر أهدافهم.

5- وكذلك كلمة **"الدين"** اقتصرت على معنى النِّحْلة. فمن المسلمين من يظن أنه قد أخلص دينه لله طالما انتحل الديانة الإسلامية ولم يبق في ملة اليهود أو النصارى، بينما الدين في نظره مجرد شعائر بين الفرد وربه لا يتعداها إلى مناهج ونظم الحياة. والمتدين على هذا الفهم قد يحرج لفوات أحد الصلوات في المسجد أو لإفطار يوم في رمضان إذا مرض لأن هذا هو كل الدين في نظره، بينما قد يعطي ولاءه وحبه لمذاهب ونظم ومناهج الكفار في التشريع أو الاجتماع أو الاقتصاد أو السياسة أو الأدب أو الثقافة أو الفن.

6- وكلمة **"الطاغوت"** فسرت بأنها الصنم أو الشيطان فقط. فلم تبلغ دعوة القرآن مداها في قلب المسلم، لأنه بالفعل قد اعتزل الأصنام وأبغض الشيطان، مع احتمال تعلقه بأذيال الطواغيت الأخرى ممن يشرعون مناهج للحياة تضاد وتخالف منهج الإسلام، أو ممن يريدون أن يهيمنوا على المسلمين وبلادهم ومقدراتهم.

لقد كان المسلمون قادة وهداة للبشرية عندما كانت شمولية إسلامهم وعقيدتهم جلية في عقولهم وقلوبهم، فلما ابتسر إسلامهم لم يعد لديهم شيء يقدمونه لغيرهم. فطالما أن العقيدة في الله قد انحصرت في إثبات وجوده، وأنه الخالق، وأنه المعبود بالشعائر فقط، ولم يعد لمنهج الحياة جذور في هذه العقيدة، وصار التمسك به نوعا من كماليات الدين، فماذا يمكن للمسلمين أن يقدموا لغيرهم ؟!. وهذه نتيجة طبيعية لمن لم يفهم أن الله هو الرب المشرع للشعائر ولمنهاج الحياة، وهو الإله المعبود بهذا التشريع والمتبع في هذا المنهج في كل مظاهر الحياة، اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية، وأن الدين هو الشعيرة والشريعة والمنهاج المتبع في كل مظاهر الحياة أيضا.

إن الفهم الصحيح للإسلام الشامل وعقيدته الشاملة واجب على كل مسلم بالقدر الذي يجعله يمارس حياته على أساسه. فالعلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، والعلم يسبق العمل، خصوصا في هذا العصر الذي يُقصد فيه تغييب المعنى الشامل للإسلام وعقيدته. والمسلم ليس معصوما من الوقوع في الشرك، فقد يقع فيه دون أن يدري، لذلك علمنا رسول الله أن ندعو كل صباح ومساء: "**اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئا أعلمه وأستغفرك لما لا أعلمه**". كما أن تبيين الفهم الشامل للإسلام واجب الدعاة إلى الله، سواء بالكلمة الطيبة أو بالممارسة الشاملة للإسلام وتقديم نماذج حية في نواحيه الاجتماعية والتربوية والاقتصادية

والسياسية. كما أن الأخذ بأيدي المسلمين واستدراجهم إلى دينهم الكامن في قلوبهم وتحويله إلى طور الحركة أسلوب على الدعاة أن ينتبهوا إليه لأن الخير في هذه الأمة إلى يوم الدين.

الحل:

الحل هو هذا البحث الذي يعتبر محاولة لفهم عقيدة الإسلام من القرآن مباشرة عن طريق تجلية مصطلحاتها الأساسية وتبيين كيفية استعمالها في القرآن، لذلك أسميته "**أسس دعوة القرآن**"، وقسمته إلى عدد من الفصول، كل فصل يبحث في المعاني المختلفة لمصطلح ما كما استخدمه القرآن. ولكي لا يطول البحث فقد اعتمدت على أسلوبي في التعبير عن المعاني بعد الاطلاع على المراجع واستيعاب ما جاء بها بخصوص كل مصطلح. وأهم الكتب التي رجعت إليها هي: المصطلحات الأربعة للمودودي، والعبودية ليوسف القرضاوي، ورسالة العبودية لابن تيمية، وفتح المجيد بشرح كتاب التوحيد، ومعارج القبول، والطاغوت لأحمد القطان، ومختصر تفسير بن كثير، وصفوة التفاسير، وظلال القرآن، وغيرها من الكتب المعروفة والمتداولة. وقد راعيت أن يكون الأسلوب سهلا وعلميا ويعتمد على الدليل من القرآن والسنة، عسى أن ينتبه المسلم لدينه فيعرف قدره وقدر أمته، ويعيش لهذا الدين ويمحور حركته في هذه الحياة حول نصرة هذا الدين وهذه الأمة الخيرية التي أخرجت من أجل سعادة البشرية.

أسأل الله تعالى أن يتقبل عملي هذا إن أصبت، وأن يغفر لي خطأه، كما أسأله سبحانه أن يفتح به قلوبا ويشرح به صدورا وأن ييسر به دعوة القرآن الكريم.

الفصل الأول : الله سبحانه وتعالى

معاني لفظة الجلالة:

1- **الله:** اسم علم على ذات خالق ومدبر هذا الكون وما فيه ومن فيه. وهو المعنى الذي يقر به كل الناس مؤمنهم وكافرهم. والدليل على ذلك هو ما يأتي في القرآن من نطق هذا اللفظ على لسان الكفار، كما في قوله تعالى: "**ولئن سألتهم: من خلقهم؟ ليقولن الله**" الزخرف87، وقوله: "**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله**" العنكبوت61 .

2- **الله: الإله الذي** يتوجه له الكون كله، فتسبح الكائنات بحمده، قال تعالى: {**وهو الله في السموات وفي الأرض**} الأنعام3، والتي فسرت بقوله تعالى: {**وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله**} الزخرف84 أي يقدسه ويعظمه من في السماوات والأرض قهرا وقدرا.

وجود الله:

الكلام عن وجود الله له معنيان:

الأول: الوجود الذي هو ضد العدم، وهذا هو الذي يتكلم فيه الفلاسفة. وكل الناس يقرون به، وهو راسخ ومخلوق في فطرتهم لا يستطيعون إنكاره، فالأصل هو الوجود وعلى المنكر الدليل.

والثاني: الوجود الذي هو ضد الغياب، أو الذي هو بمعنى الحضور والتدبير والفاعلية المطلقة في هذا الكون، وهذا هو الذي يتكلم فيه العارفون.

فالوجود الأول هو الذي يؤمن به كل الناس، والثاني هو الذي اختلف عليه الناس، فمنهم من لا يؤمن به وهم الملحدون الماديون، ومنهم من يشرك مع الله غيره في التدبير، ومنهم المؤمنون الموحدون.

فهذا أرسطو يؤمن بأن الله خلق هذا الكون ثم غاب عنه وتركه ليتأمل هو في ذاته، فالله تعالى في نظر أرسطو إله يملك الكون ولا يحكمه أو يدبره، وهذا مقتضى الكمال في زعمه. أي أن أرسطو يؤمن بوجود الله ولكنه لا يؤمن بحضوره وتدبيره وقيومته على هذا الكون. ومن يؤمن بهذا فهو لا يؤمن بالرسل ولا بالكتب لأن الله لا يدبر أمر عباده، بل تركهم وشأنهم يدبرون أمرهم ويشرعون لأنفسهم منهاج حياتهم .

والآن سنعرض الأدلة من القرآن على أن الناس جميعا يؤمنون بوجود الله الذي هو ضد العدم مع كفرهم وعنادهم لأنبيائهم.

1- فقوم نوح، وهم أقدم أمة في التاريخ، ردوا دعوة نوح مع إقرارهم بوجود الله، كما جاء على لسانهم في قول الله تعالى: {**ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل** ملائكة} المؤمنون24.

2- وقوم عاد، كفروا مع إقرارهم بوجود الله، فقد قالوا لنبيهم هود: {**أجئتنا لنعبد الله وحده**} الأعراف70.

3- وسيدنا صالح دعا قومه لعبادة الله الذي يقرون بوجوده، فقال: {**اعبدوا الله مالكم من إله غيره**} هود61. وقال لهم: {**إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون**} الشعراء.143

4- وسيدنا إبراهيم، قال لنمرود {**قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر**} البقرة258، فلولا إقرار نمرود بوجود الله، وإقراره بأن الله هو الذي يأتي بالشمس من المشرق، ما بهت.

وعندما ذهب سيدنا إبراهيم إلى مصر، طمع فرعونها حين ذاك في زوجته سارة، فأمر أن تأتيه {**فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخِذ. فقال ادعي الله لي ولا أضرك**} البخاري (3358)، ففرعون يؤمن بوجود الله ويعرف عبادته بالدعاء.

5- وقوم لوط، كفروا مع إقرارهم بوجود الله، كما جاء على لسانهم في قوله تعالى: {**قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين**} العنكبوت29.

6- وسيدنا شعيب أمر قومه بعبادة الله الذي يقرون بوجوده {**وإلى مدين أخاهم شعيبا، قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره**} الأعراف.85

7- وهذا عزيز مصر يقول لزوجته بعدما راودت يوسف عن نفسه {**واستغفري لذنبك إنك كنتِ من الخاطئين**} يوسف29، أي استغفري الله، فهو لا يقر بوجود الله فقط وإنما يعرف شيئا عن عبادة الله وإن كان بالشرك، والذي هو استغفار الله بواسطة الأصنام. وهؤلاء النسوة يقلن عند رؤيتهن لسيدنا يوسف {**حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم**} يوسف31 فهن لا يؤمن بوجود الله فقط وإنما يؤمنّ أيضا بوجود الملائكة. كما أن هؤلاء النسوة قد قلن مرة أخرى في حضرة الملك الهكسوسي نفسه {**حاش لله ما علمنا عليه من سوء**} يوسف51. هذا في الوقت الذي يقول سيدنا يوسف عن هؤلاء القوم عموما {**إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون**} يوسف37. فكيف ذلك؟ ذلك أن سيدنا يوسف لا ينفي عنهم الإيمان بوجود الله وبخلقه للكون ومن فيه، وإنما ينفي عنهم الإيمان بالله ربا مشرعا وإلها معبودا بهذا التشريع، فهم يؤمنون بهذا كله حقا للملك وكيلا عن الله.

8- والفراعنة أيام سيدنا موسى كانوا يقرون بوجود الله، فهذا سيدنا موسى يقول لهم {**ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به، حتى إذا هلك قلتم: لن يبعث الله من بعده رسولا**} غافر34، ولاحظ هنا أن لفظ الجلالة قد جاء على لسانهم هم.

وفرعون موسى نفسه، لا يقر بوجود الله فقط، بل يقر أيضا بوجود الملائكة، كما أخبر تعالى على لسان فرعون، وهو يتهكم على موسى ويرى نفسه أفضل منه: {**فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب، أو جاء معه الملائكة مقترنين**} الزخرف53، بل ويعتقد أن الله قد يؤيد بها من يريد تأييده.

9- واليهود والنصارى، وهم كفار، يؤمنون بوجود الله، {**وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح بن الله**} التوبة30.

10- والمشركون كذلك: **{وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء}** النحل35، **{وأقسموا بالله جهد أيمانهم: لا يبعث الله من يموت}** النحل38.

وغير ذلك كثير من آيات القرآن، التي يأتي فيها ذكر لفظ الجلالة على لسان الكافرين، والتي تدل على أن كل البشرية تؤمن بوجود الله، وأنه لم يستطع أحد إنكار وجود الله الذي هو ضد العدم على مدار التاريخ.

إذا لا يصح من المسلمين أن يتصوروا وكأن الإقرار بوجود الله، الذي هو ضد العدم، هو نهاية العقيدة. بل أقول أن الإقرار بوجود الله هذا ليس هو بداية العقيدة الإسلامية أيضا لأن الأصل هو الوجود وليس العدم، ولأنه لا يسع أحد أن ينكر هذا الوجود أصلا، فهو في الفطرة مخلوق، وأكثر منه أننا نحن البشر قد أقررنا ونحن في عالم الذر قبل أن نخلق أن الله هو ربنا خالقنا، قال تعالى: **{وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم، قالوا: بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم، أفتهلكنا بما فعل المبطلون}** الأعراف172.

ومن هنا فليس لأحد فضل في الإيمان بوجود الله الذي هو ضد العدم، فهذا إيمان لا يحتاج إلى جهد، بل هو في الفطرة مستقر. لذلك فإن هذا الإيمان ليس هو بداية ولا نهاية دعوة القرآن.

وهنا أسجل أقصى درجات الكفر التي سجلها القرآن على أناس قليل جاؤوا بعد سيدنا نوح يحكي القرآن على لسانهم قولهم: **(إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين)** المؤمنون37، وقولهم: **(إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر)** الجاثية24، لقد جردوا الله من صفاته الفاعلة في الكون، بمعنى أنهم يتصورون أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون أول مرة ثم تركه ولا علاقة له به، فليس هو قائم على عباده يرعاهم ويحفظهم ويهديهم بإرسال رسل تذكرهم. فهم لا يؤمنون إلا بحياتهم الدنيا، لذلك ينكرون عبادة الله مطلقا، وبالتالي ينكرون الرسالات، وينكرون الآخرة. وقد كان هؤلاء القوم يؤمنون بوجود الله، بدليل نطقهم بلسانهم لفظ الجلالة في الآية التي بعدها مباشرة من سورة المؤمنون، يقولون على رسولهم **{إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين}** المؤمنون38.

وهذا حال كل الملحدين عبّاد المادة في هذا العصر، يظنون أن الله خلقهم أول مرة وتركهم وشأنهم يفعلون ما يريدون ويشرعون ما يهوون، فهم يظنون أن العقل كافٍ ليرشدهم إلى الطريقة الصحيحة لحياتهم؛ لذلك لا يعتقدون في الرسالات ولا في الآخرة .

أما كفر أكثر الملل سواء البشرية الفلسفية منها أو المحرفة عن الإسلام – دين كل الأنبياء – فقد وقع في تصور هذه الملل لكيفية كنه الله. فمن الملل ما تقيس الله سبحانه بمخلوقاته، فقد يتزوج ويولد له البنين والبنات في تصورهم. ومن الملل ما تتصور الله على كيفية معينة، كأن تتصوره سبحانه روحا تحل أو تتجلى في مخلوقاته من الجماد أو الكواكب والنجوم أو الإنسان، فتعبد هذا الجماد أو ذاك الإنسان وتجعله واسطة بينها وبين الله.

__العقيدة الإسلامية في ذات الله:__

ومن هنا تأتي أهمية تمسكنا بتوحيد الله في ذاته وأسمائه وصفاته كما قرر القرآن وكما هي العقيدة الإسلامية الصحيحة، من أن العقل البشري لا يستطيع إدراك كنه الله ولا معرفة حقيقته {**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو *اللطيف الخبير***} الأنعام103. بل إن الإنسان لا يستطيع إدراك كنه نفسه التي بين جنبيه، ولا إدراك حقيقة الموت والحياة ولا حقيقة الروح، برغم مشاهدتنا لآثار كل ذلك في حياتنا. وذلك لأن هذه الغيبيات لا يمكن معرفتها إلا بالنقل، فلا سبيل للعقل المجرد إلى إدراكها، ولم يخبرنا الله بحقائقها عن طريق رسله رحمة بنا وتوقيفا لنا عند حد عبوديتنا له وربوبيته علينا.

فنؤمن بأحدية الله وتفرده في ذاته، بمعنى أن ذات الله ليست كذات المخلوقين، فليست جسدا وليست روحا {**قل: هو الله أحد، الله *الصمد*، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد**} الإخلاص. ونؤمن بأسمائه وصفاته سبحانه التي وصف بها نفسه في كتابه والتي وصفه بها رسوله في السنة الصحيحة دون غيرها، وأن هذه الأسماء والصفات ليست كصفات المخلوقين في حقيقتها وكيفيتها وإن تشابهت الأسماء، قال تعالى: {**ليس كمثله شيء وهو *السميع البصير***} فاطر11، فهو سبحانه سميع وبصير، ولكنه تعالى ليس كمثله شيء في حقيقة وكيفية سمعه وبصره، إنه سبحانه وتعالى يسمع دبيب النملة على الصخرة الملساء في الليلة الظلماء، لا يعجزه سبحانه وتعالى كثرة اللغات ولا كثرة الأصوات، وبصره كذلك سبحانه وتعالى مطلق يرى كل شئ. والإنسان المخلوق يوصف أيضا بأنه سميع وبصير، ولكنه سمع وبصر مخلوقين من الله، يعملان بهذين العضوين أو الجارحتين: صماخ الأذن وهذه العَيْن أو هذه الحدقة التي بها الشبكية والقرنية.

وكذلك هو سبحانه "**المالك**" ملكا حقيقيا ذاتيا كاملا، والإنسان يوصف أيضا بأنه مالك، ولكنه ملك استخلافي طارئ. وهكذا في كل أسمائه وصفاته التي قد يوصف بها عبيده. فالاشتراك في اللفظ وليس في الكيفية والكنه والحقيقة. وهكذا كل أسماء الله وصفاته نثبتها بلا تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل.

ومن هنا تنتهي عقيدة المسلم إلى إغلاق هذا الباب المفتوح على التفكير في كنه الله وكنه أسمائه وصفاته لكي يلتفت إلى أفعاله هو، هل ستكون انعكاسا لمعرفته وإيمانه بأسماء الله وصفاته ؟ فالله سبحانه سميع، فماذا سيكون كلام المسلم ؟ هل سيكون ذكرا وأمرا بمعروف ونهيا عن منكر وعلماً وتعليماً وإرشاداً وغير ذلك. والله سبحانه بصير، فماذا ستكون أفعال المسلم، هل سيراقب الله في أفعاله ؟ هل ستكون سعيا من أجل القيام بمهمة الاستخلاف في الأرض المكلف بها من الله؟ وإن الله هو المالك فماذا ستكون أفعال المسلم إذا أعطاه الله ملكا ؟ هل سيتكبر به على الناس أم سيشكر نعمة ربه ويتواضع لخلقه ؟!

كذلك إذا قرأ المسلم الصادق قول الله تعالى {**الرحمن على العرش استوى**} طه5 فسيشعر بعظمة الله وكبريائه واستعلائه على خلقه وهيمنته عليهم، وأنه سبحانه بائن منهم مغاير لهم. فيؤثر ذلك في عقله بعداً عن مفهوم حلول الله أو شيء من صفاته في مخلوقاته، ويؤثر في قلبه إكباراً وإعظاماً لربه، وفي شعوره ذلاً وخضوعا لمولاه، فلا يلجأ إلى التأويلات المذمومة التي تصرفه عن ما ينبغي عليه، وتستدرجه إلى التفكير في كيفية كنه الله، فيضل عن عبوديته لله وعن ربوبية الله له.

إن الله سبحانه وتعالى في السماء: {**أأمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا**} الملك17 مستوٍ على عرشه بائن من خلقه مغاير لهم، هو في العُلوّ وخلقه في الدُّنوّ، سبحانه ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في أسمائه وصفاته، وهو سبحانه مع خلقه يعلم أحوالهم ويسمع أقوالهم ويرى أفعالهم ويدبر أمورهم: {**هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم <u>استوى على العرش</u>، <u>يعلم</u> ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو <u>معكم أين ما كنتم</u>، والله بما تعملون بصير**} الحديد4. والذي يفكر في كيفية الله هو الذي يتوهم التعارض بين استواء الله على عرشه وبين معيته لخلقه وقد جمع الله بينهما في هذه الآية الكريمة.

وهو سبحانه مع المؤمنين خاصة، يتولاهم برعايته ويكلؤهم برحمته ويؤيدهم بنصره {**إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون**} النحل128، وقال تعالى لموسى وهارون حين أرسلهما إلى فرعون {**لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى**} طه46، وقال تعالى عن رسوله محمد ص {**إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا**} التوبة40. وسيأتي إن شاء الله مزيد مما عرف الله به نفسه لعباده في هذا الفصل .

<u>التفكير في كنه الله هو السبب الأساسي لضلال كل الكفار:</u>

إن التفكير في كنه الله هو الذي أدى بكل الملل الأخرى إلى الوقوع في عقيدة حلول الله بذاته أو بصفاته في مخلوقاته، أو الوقوع في قياسه سبحانه بمخلوقاته، فقد يلد وينام في تصورهم.

1- فاليهود قالوا {**عزير ابن الله**} التوبة30 .

2- والنصارى قالوا {**المسيح ابن الله**} التوبة30 وقالوا أيضا إن الله {**ثالث ثلاثة**} المائدة73 وقالوا أيضا {**إن الله هو المسيح بن مريم)** المائدة17. وهذه العقيدة مقبولة في نفوسهم بسبب قياسهم الله بمخلوقاته، فقد تجلى في مريم فولدت له المسيح، فهو الأب والمسيح هو الابن. أو تجلى بالحلول المؤقت في الثلاثة، كما تحل الأرواح في الأجساد، فهو في النهاية واحد، ولذلك يقولون: باسم الأب والابن والروح القدس ثم يقولون إله واحد.

3- وكذلك مشركو العرب، قالوا إن الملائكة بنات الله، وقد أنكر الله عليهم ذلك في قوله تعالى: {**أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا، إنكم لتقولون قولا عظيما**} الإسراء40. هذا برغم إقرارهم بأن الله على عرشه في السماء إلا أنه لم يَبِنْ من خلقه، فالملائكة بناته في زعمهم.

4- والمشركون عموما لا يعبدون أصنامهم من فراغ ولا يعتقدون نفعها من ذاتها، ولكن عقيدة حلول شيء من صفات الله أو سر من أسرار الله في أصنامهم هو الذي جعلهم يقدسونها ويعبدونها.

وكثيرا ما تلعب شياطين الجن دورا كبيرا في تثبيت هذه العقيدة بأن تتمثل لهم أو تحل في أصنامهم وتكلمهم وتجيبهم عن بعض ما طلبوه، فيزداد اعتقادهم وتقديسهم لهذه الأصنام. لذلك نسب سيدنا إبراهيم الإضلال إلى الأصنام التي لا تنفع ولا تضر مجازاً، والحقيقة أن الإضلال مارسه شيطان الجن الذي حل بالصنم، قال تعالى: {**وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام * رب إنهن أضللن كثيرا من الناس**} إبراهيم35. ولذلك نجد أن شرك الخرافات يبدأ بالإطراء ثم بالتقديس للملائكة والأنبياء والصالحين خصوصاً، وينتهي إلى عبادتهم مع الله بعد عمل تماثيل ترمز لهم؛ لأن ذلك أقرب لعقول الناس أن يصدقوا أن سرا من أسرار الله قد حل بهذه الأصنام. (انظر الجزء الأول من فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية).

5- وحتى فرعون نفسه لم يتربب على الناس بقوله {**أنا ربكم الأعلى**} النازعات24 ويتأله عليهم بقوله {**ما علمت لكم من إله غيري**} القصص38 من فراغ، وإنما كانت عقيدة الحلول هي المبرر. فهو يعتقد – وقومه يصدقون – أن سر الله قد حل فيه، فأصبحت إرادته وأوامره مقدسة، بل وذاته ودمه أيضا مقدسين. والحقيقة أن شياطين الجن هي التي حلت به وأقنعته بذلك وآمن هو بها، ومن هنا آمن فرعون بأن إرادته وهواه وما يشرعه للناس هي إرادة الله وشرعه لهم كما يزعم، فهو الواسطة بين الله والناس في التشريع، وآمن بأن عبادة الناس له بطاعته في تشريعه وبأداء طقوس هذه الطاعة له هي عبادة لله نفسه. ولذلك نجده لا يقر لموسى بأن الله في السماء بائن من خلقه مغاير لهم؛ فلا يحل فيهم، وأنه ليس كمثله شيء. فبعدما أخذ

الناس يرددون دعوة موسى هذه، خاف فرعون من اهتزاز عقيدة الناس فيه، فأراد أن يؤكد للناس أن الله روح تحل بالأشياء وتتجلى بأقواها كما يعتقدون وأنها قد تجلت فيه وفي الأصنام التي يعبدها معهم، وأن الله ليس في السماء أو ليس منفصلا وبائنا من خلقه كما يقول موسى، فقال لوزيره هامان {**فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين**} القصص38، فقوله: "إله موسى" يقصد به الله بالتصور الذي يدعو إليه موسى.

ولكن هذا لا يمنع أن الأهواء والمصالح سابقة لتكوين هذه العقائد الباطلة وأنها هي التي أوجدتها. فالفرعون الأول أراد في الحقيقة أن يهيمن على الناس بأهوائه، فأوهم الناس بوسائل إعلامه – وهي السحرة في ذلك الوقت – أن إرادة الله هي إرادته. وبمرور الزمن صدقه الناس ثم صدق هو نفسه. وحتى فرعون موسى، لما اهتز عرشه بسبب دعوة موسى، اضطرب واحتاج أن يقنع الناس بأحقيته في سلطة التشريع عليهم، وانظر كيف يصور القرآن هذا الموقف، يقول تعالى: {**ونادى فرعون في قومه، قال يا قوم: أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي، أفلا تبصرون * أم أنا خير من هذا الذي هو مهين، ولا يكاد يبين * فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين * فاستخف قومه فأطاعوه، إنهم كانوا قوما فاسقين**} الزخرف51. وكذلك سدنة الأصنام هم في الحقيقة يريدون أكل أموال الناس، فمازالوا يلحون عليهم ويغرونهم أن سرا من أسرار الله قد حل في هذه الأصنام، فهي تقدر على إجابة الدعاء وكشف الكروب وغير ذلك، لأنها تملك الشفاعة عند الله بسبب هذا السر الذي حل فيها كما يزعمون، وبهذا يقع الناس في الشرك فيدعونهم ويستغيثون بهم في النوائب وغيرها.

6- وقوم سيدنا إبراهيم، كانوا يعتقدون أن الله قد تجلى بربوبية النفع والضر في الكواكب والقمر والشمس، لذلك فقد فكر سيدنا إبراهيم – قبل أن يبعث – فيما يعتقده قومه في كيفية الله، كما جاء في سورة الأنعام76. ففي ذات ليلة رأى كوكبا، فتساءل قائلا {**هذا ربي ؟**} أي أيعقل أن يكون الله قد تجلى بربوبية النفع والضر في هذا الكوكب كما يقول قومي؟، فلما أفل الكوكب، قال إبراهيم: {**لا أحب الآفلين**}. وكذلك فكر إبراهيم فيما يعتقده قومه من تجلي الله في القمر {**فلما رأى القمر بازغا، قال هذا ربي؟ فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي**} أي إلى الحق في أمر كنهه {**لأكونن من القوم الضالين**}. وكذلك فكر إبراهيم في أمر الشمس: {**فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر، فلما أفلت قال: يا قوم إني بريء مما تشركون**}، والشرك هنا بكل أنواعه الثلاثة: أي تشركون في ذات الله فتكيفونها وتشبهونها بشيء يتجلى في مخلوقاته، ثم تعتقدون في هذه المخلوقات النفع والضر والوساطة بينكم وبين الله خالقكم فتشركون بذلك في ربوبية الله، ثم ترتبون على هذا توجهكم بأعمالكم وشعائركم لهذه المخلوقات كي تشفع لكم عند الله

خالقكم فتشركون بذلك في ألوهية الله. ثم هدى الله إبراهيم أن يقطع الطمع في أن يعرف كنه الله، لأنه ليس كمثله شيء، ولأن المخلوق لن يدرك الخالق، وأن عليه هو أن يتوجه بكليته إلى الله يعبده وحده. فقال إبراهيم: {**إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا، وما أنا من المشركين**} أي وجهت عبادتي وجميع أعمالي إلى من أعرفه وتعرفونه يا قومي خالقا للسماوات والأرض، بدون أن أشترط معرفة كنهه، فإن الله يا قومي ليس في حاجة إلى أن يتجلى في مخلوقاته، وقد قطعت الطمع أصلا في معرفة كيفيته وأنا أدعوكم إلى ذلك.

إن العقيدة الإسلامية في أسماء الله وصفاته كما عرضها القرآن العظيم تميز هذه الأمة عن بقية الأمم، وتؤدي لإطلاق طاقتها نحو العمل الذي هو من لوازم خلافة هذه الأمة في الأرض، فإن إغلاق باب التفكر في كنه الله يؤدي إلى ذلك.

رسالة الرسل تبدأ بالدعوة لمعرفة الله وعبادته والتحاكم لشرعه مباشرة:

إن الله سبحانه وتعالى يقر بوجوده كل البشر، ولذلك فقد خاطب الرسل أجمعين أقوامهم عن شيء يعرفونه، فبدؤوهم بدعوتهم لمعرفة الله وتوحيده وتعظيمه وتقديسه وتقديره حق قدره وعبادته ودعائه والتحاكم لشرعه، قال تعالى: (**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**) الأنبياء25، وكان كل رسول يقول لقومه: {**يا قومي اعبدوا الله مالكم من إله غيره**}، ولم يبدؤوهم بدعوتهم للإقرار بوجوده سبحانه وبخلقه لهم أولا ثم إذا أقروا دعوهم لمعرفته وعبادته والتحاكم إليه ثانيا.

إن القرآن الكريم يتعامل مع الناس على أنهم يقرون بوجود الله وخلقه لهم وللكون من حولهم، ويخبرهم ويبين لهم صفاته ليعرفوا عن ربهم ما غاب أو خفت من فطرتهم، ويستحثهم على التفكر في الكون من حولهم ليزدادوا معرفة وإيمانا ويقينا بربهم.

لذلك فإن من فقه الدعوة أن تبدأ بدعوة الناس لمعرفة الله واليقين والإيمان به وعبادته وطاعته والتحاكم لشرعه عن طريق خاتم رسله محمد ص، فالأصل هو وجود الله وعلى المنكر الدليل. وفي هذا سلامة للداعية وللمدعو. للداعية حتى لا يضل في خيالات الفلسفة، وللمدعو حتى لا يظن أن الإقرار بوجود الله هو نهاية المطلوب منه أو أكثره.

معرفة الله

تعرّف الله إلى عباده في كتابه وعلى لسان نبيه ص بطريقتين: الأولى هي بذكر أسمائه وصفاته، والثانية هي بذكر أفعاله في هذا الكون. وذلك لكي تتيقن القلوب بربها وتأنس به مع المخلوقات من حولها، وتتوجه معها إلى الخالق في عبادة وخشوع .

أولا: معرفة الله بذكر أسمائه وصفاته:

أسماء الله الحسنى تتضمن صفاته سبحانه وتعالى، وتأتي هذه الأسماء في الغالب على شكل إسمين في ذيل كثير من الآيات حسب مناسبة موضوع الآية أو الآيات، مثل قوله تعالى: **(إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه، إن الله غفور رحيم)** البقرة 173، وقوله تعالى: **(قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما، إن الله سميع بصير)** المجادلة 1، وقوله تعالى: **(يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم، والله عليم حكيم)** النساء 26، والآيات في ذلك كثيرة متناثرة في سور القرآن الكريم .

وقد جاءت بعض أسماء الله الحسنى متوالية في آخر سورة الحشر، قال تعالى: {**هو الله الذي لا إله إلا هو، عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم * هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارئ المصور، له الأسماء الحسنى، يسبح له ما في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم**} آخر الحشر.

وجاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ص: {**إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر**}، هذا لفظ البخاري، وفي لفظ مسلم {**لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة**}. ورواه الترمذي وزاد:

الله، الذي لا إله إلا هو، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرازق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين،

الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرءوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، القسط، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور.

وورد في الحديث من رواية أخرى: **الحنان، المنان، البديع.** وورد كذلك من أسمائه تعالى: **المغيث، الكفيل، ذو الطول، ذو المعارج، ذو الفضل، الخلاق، الديان.**

قال أبو بكر بن العربي في شرح الترمذي حاكيا عن بعض أهل العلم: إنه جمع من الكتاب والسنة من أسمائه تعالى ألف اسم. (انظر رسالة العقائد لحسن البنا).

لذلك فإن المقصود من حديث أبوهريرة أن لله أسماء كثيرة من عرف الله بتسعة وتسعين منها فجزاؤه الجنة.

وقد جمع الحافظ ابن حجر تسعة وتسعين اسما من الكتاب العزيز (تلخيص الحبير 174/4): جاء فيها أسماء زائدة عن السابق وهي كالآتي:

الرب، الإله، الشاكر، القدير، المولى، النصير، القريب، المحيط، المبين، المتعال، المستعان، الحفي، القائم، الغالب، القاهر، الحافظ، الأحد، المليك، الكافي، الأكرم، الأعلى، ذو القوة، غافر الذنب، قابل التوب، شديد العقاب، رفيع الدرجات، سريع الحساب، فاطر السموات والأرض، بديع السموات والأرض، نور السموات والأرض

ثانيا: معرفة الله بذكر أفعاله

ذكرنا أن العارفون يتكلمون عن وجود الله الذي هو حضوره وقيومته وفاعليته المطلقة في هذا الكون، والمقصود بفاعليته المطلقة سبحانه وتعالى هو ظهور آثار صفاته في هذا الكون.

وأفعال الله تتمثل في: ذكر آثار قدرته وتدبيره في ملكوته سبحانه، وذكر آياته في الأنفس والآفاق، وذكر سننه في خلقه، وذكر آلائه ونعمه على خلقه، وذكر ربوبيته للكون كله عموما. والحقيقة أن الآيات في ذكر أفعال الله كثيرة جدا، والآتي أمثلة فقط.

قال تعالى: **(إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما <u>أنزل</u> الله من السماء من ماء <u>فأحيا</u> به الأرض بعد موتها <u>وبث</u> فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون)** البقرة 164.

قال تعالى: {**إن الله فالق الحب والنوى، يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي، ذلكم الله، فأنى تؤفكون * فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا، ذلك تقدير العزيز العليم * وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون * وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون * وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه، إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون**} الأنعام95-99.

وقال تعالى: (**ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين * وحفظناها من كل شيطان رجيم * إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من شئ موزون * وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين * وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم * وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين * وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون * ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين * وإن ربك هو يحشرهم، إنه حكيم عليم * ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون * والجان خلقناه من قبل من نار السموم**) الحجر16-27 .

وقال تعالى: {**خلق السموات والأرض بالحق، تعالى عما يشركون * خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين * والأنعام خلقها، لكم فيها دفءٌ ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، إن ربكم لرءوف رحيم * والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، ويخلق مالا تعلمون * وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين * هو الذي أنزل من السماء ماء، لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون * ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون * وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر، والنجوم مسخرات بأمره، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون * وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه، إن في ذلك لآية لقوم يذكرون * وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا**

وسبلا لعلكم تهتدون * وعلامات وبالنجم هم يهتدون * أفمن يخلق كمن لا يخلق، أفلا تذكرون } أول النحل.

وقال تعالى: **(ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين * ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون * ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين * وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض، وإنا على ذهاب به لقادرون * فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون * وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين * وإن لكم في الأنعام لعبرة، نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون * وعليها وعلى الفلك تحملون)** المؤمنون 12-22 .

وقال تعالى: **(والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون. ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ؟ ما يمسكهن إلا الله، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون. والله جعل لكم من بيوتكم سكنا، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين. والله جعل لكم مما خلق ظلالا، وجعل لكم من الجبال أكنانا، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر، وسرابيل تقيكم بأسكم. كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون)** النحل78-81 .

وقال تعالى: **(ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا * ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا * وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا * وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته، وأنزلنا من السماء ماء طهورا * لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا * ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا * ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا * فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا * وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا * وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا، وكان ربك قديرا)** الفرقان 45-54

وقال تعالى: **(ولله ملك السموات والأرض، وإلى الله المصير * ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد**

فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار * يقلب الله الليل والنهار، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار * والله خلق كل دابة من ماء، فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع، يخلق الله مايشاء، إن الله على كل شئ قدير * لقد أنزلنا آيات مبينات، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) النور 42-46 .

وقال تعالى: **{وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون * وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون * ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم، أفلا يشكرون * سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون * وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجري لمستقر لها، ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون * وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون * وخلقنا لهم من مثله ما يركبون * وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا ينقذون * إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين}** يس 33-44.

وقال تعالى: **(ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه في قرار مكين * إلى قدر معلوم * فقدرناه فنعم القادرون * ويل يومئذ للمكذبين * ألم نجعل الأرض كفاتا * أحياء وأمواتا * وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا * ويل يومئذ للمكذبين)** المرسلات 20-28.

وقال تعالى: **(ألم نجعل الأرض مهادا * والجبال أوتادا * وخلقناكم أزواجا * وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا * وجعلنا النهار معاشا * وبنينا فوقكم سبعا شدادا * وجعلنا سراجا وهاجا * وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا * لنخرج به حبا ونباتا * وجنات ألفافا * إن يوم الفصل كان ميقاتا)** النبأ 6-17 .

وقال تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم وهو يتبرأ للمشركين من أصنامهم: **(قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباءكم الأقدمون * فإنهم عدو لي إلا رب العالمين * الذي خلقني فهو يهدين * والذي هو يطعمني ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذي يميتني ثم يحيين * والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين)** الشعراء 75-82.

وقال تعالى: **(لله ملك السموات والأرض، يخلق ما يشاء، يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور، أو يزوجهم ذكرانا وإناثا، ويجعل من يشاء عقيما، إنه عليم قدير)** الشورى49-50 .

وقال تعالى: **(الله يتوفى الأنفس حين موتها، والتي لم تمت في منامها، فيمسك التي قضى عليها الموت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)** الزمر 42 .

وقال تعالى: **(كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون * يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون * وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين * ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون * إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين * وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم، وما النصر إلا من عند الله، إن الله عزيز حكيم * إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام * إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا، سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان * ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب * ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار * ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار * ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم، وبئس المصير * فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، وما رميت ولكن الله رمى، وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا، إن الله سميع عليم * ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين)** الأنفال5-18 .

وقال تعالى: **(قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم، ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم)** التوبة14-15 .

وقال تعالى: **(يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)** التوبة32-33 .

وكل هذه الآيات تنص على أن الله سبحانه وتعالى هو الفاعل الحقيقي في هذا الكون، وأنه لا فاعل على الحقيقة في هذا الكون إلا هو. وهذا هو معنى الوجود الذي يتكلم عنه القرآن. فإنه وإن وجدت أفعال للمخلوقات فإنما تستمد أفعالها من الله الفاعل الحقيقي، فهو سبحانه وتعالى خالق أفعال العباد، فلا يخرج

هذا الكون بكل ما فيه من أفعال عن تدبيره سبحانه وتعالى وقيامه على أمر كل شئ، فليس سواه فاعلا لشئ على الحقيقة.

لذلك نجد المسلم إذا حدث له ما يكره يقول: "**قدر الله وما شاء فعل**"، وإذا حدث له ما يحب يقول: "**الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات**"، ونجد المسلم يقول عند نومه: "**باسمك اللهم أموت وأحيا**" وعند استيقاظه يقول: "**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور**". لقد استيقظ المسلم ولكن الله هو الذي أيقظه حقيقة، ونام المسلم ولكن الله هو الذي أنامه حقيقة. وهكذا كان أحد السلف يقول: "**إني لأرى ذنوبي في خلق زوجتي ودابتي**"، إنه يرى أن خلق زوجته ودابته من فعل الله حقيقة جزاء له على ذنوبه. ويحكى أن أحد السلف الغزاة سأله حاكم البلد التي فتحها قائلا: من أنتم ؟ فقال له: "**نحن قدر الله فيكم**".

وأدعوك أخي القارئ أن تتأمل معي على أي شئ يُربى المسلم عندما يستخير ربه في أمره فيصلي ركعتين من غير الفريضة ثم يقول: "**اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، فإنك تعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم إن كان هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسره لي، وإن كان هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان**" .

لقد تكلم سيد قطب رحمه الله في هذه المعاني كلاما ربانيا طيبا في تفسيره لسورة الإخلاص يمكن الرجوع إليه مع الإنتباه إلى أنه يتكلم عن الوجود الذي هو بمعنى الفاعلية والقيومية والحضور وليس الوجود الذي هو ضد العدم. وهذا الوجود الأخير لايتكلم عنه القرآن أصلا، ولا ينبغي أن يتكلم فيه مسلم أصلا، فهو كلام الفلاسفة اليونانيين قديما .

يقول رحمه الله وهو يفسر قوله تعالى "قل هو الله أحد": " إنها أحدية الوجود، فليس هناك حقيقة إلا حقيقته، وليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده، وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية. وهي-من ثم- أحدية الفاعلية فليس سواه فاعلا لشئ، أو فاعلا في شئ، في هذا الوجود أصلا، وهذه عقيدة في الضمير وتفسير للوجود أيضا. فإذا استقر هذا التفسير، ووضح هذا التصور، خلص القلب من كل غاشية ومن كل شائبة، ومن كل تعلق بغير هذه الذات الواحدة المتفردة بحقيقة الوجود وحقيقة الفاعلية " ... إلى أن يقول رحمه الله: " وهذه هي مدارج الطريق التي حاولها الصوفية، فجذبتهم إلى بعيد ! ذلك أن الإسلام يريد من الناس أن يسلكوا الطريق إلى هذه الحقيقة وهم يكابدون الحياة الواقعية بكل خصائصها، ويزاولون الحياة البشرية، والخلافة الأرضية بكل مقوماتها، شاعرين مع هذا أن لا حقيقة إلا الله، وأن لا وجود إلا وجودة، وأن لا فاعلية إلا فاعليته".

معرفة الله بذكر الأفعال والصفات معا:

وكثيرا ما تأتي آيات من القرآن الكريم يمتزج فيها التعريف بالصفات والأفعال، أو يمتزج فيها ذكر كمال الله وربوبيته لكل شئ، كما في قوله تعالى: {**سبح لله ما في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم * له ملك السموات والأرض، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير * هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم * هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وهو معكم أين ما كنتم، والله بما تعملون بصير * له ملك السموات والأرض، وإلى الله ترجع الأمور * يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، وهو عليم بذات الصدور * آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه**} الحديد.

ثمرة الإيمان بكمال الله وربوبيته لكل شئ:

إن ثمرة هذه العقيدة هي الإيمان بالقضاء والقدر، واليقين بأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك، واليقين ثمرته التوكل، والتوكل هو اعتماد القلب على الله مع ملابسة الجوارح للأسباب .

قال تعالى: **(ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا: هذا ماوعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما)** الأحزاب22.

وقال تعالى: **(الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم)** آل عمران173-174 .

وعن جابر ر قال كنا مع رسول الله ص بذات الرقاع فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ص فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله ص معلق بالشجرة فاخترطه فقال تخافني ؟ قال: لا، فقال: فمن يمنعك مني ؟ قال: الله، فسقط السيف من يده. متفق عليه.

وعن أبي بكر الصديق ر قال: (نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رؤوسنا فقلت: يارسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: "ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما") متفق عليه.

وعن ابن عباس ر أن رسول الله ص كان يقول: (اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت: اللهم أعوذ بعزتك ؛ لا إله إلا أنت أن تضلني أنت الحي الذي لا تموت والجن والإنس يموتون) متفق عليه .

وعن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ص كان إذا خرج من بيته قال: (بسم الله توكلت على الله، اللهم إني أعوذ بك أن أَضل أو أُضل أو أَزل أو أُزل، أو أَظلم أو أُظلم، أو أَجهل أو يُجهل علي). صحيح، رواه أبو داود

وعن أنس ر قال: قال رسول الله ص: "من قال – يعني إذا خرج من بيته– بسم الله توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال له: هديت وكفيت ووقيت، وتنحى عنه الشيطان"، رواه الترمذي وقال حسن .

وعن البراء بن عازب ر قال: قال رسول الله ص يافلان إذا أويت إلى فراشك فقل: (اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت ؛ وبنبيك الذي أرسلت. فإنك إن مِتّ من ليلتك مت على الفطرة وإن أصبحت أصبت خيرا) متفق عليه .

وهذه الأحاديث من كتاب رياض الصالحين، باب اليقين والتوكل.

الشرك في هذا المعنى:

كل الكفار قديما وحديثا لا يعرفون الله كما وصف نفسه في كتبه وعلى لسان رسله أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، يتصف بكل كمال ويتنزه عن كل نقص، فعال لما يريد، يدبر أمر كل شئ من أصغره إلى أكبره.

فاليهود تصوروا–بعد تحريفهم لكتابهم–أن الله يلد فقالوا عزير بن الله، وكذلك النصارى قالوا المسيح بن الله. ومشركي مكة كانوا لا يقدرون الله حق قدره ويزعمون أن الملائكة بناته وأن بينه وبين الجِنّة نسبا، وكانوا يعتقدون في صالحيهم وزعمائهم أن لهم شيئا من التدبير مع الله، لذلك كانوا يرمزون لهم بالأصنام التي كانوا يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفا.

الفصل الثاني: الــرب

تأتي كلمة الرب في القرآن بمعان كثيرة يمكن تقسيمها إلى ثلاثة معان أساسية:

الأول– الخالق والمالك والمدبر لأمر الكون، والرازق والمحيي والمميت لمن فيه.

الثاني– المكافئ: ولي المؤمنين ومخزي الكافرين، النافع لمن استعان به والضار لمن أعرض عنه، المعطي لمن شكر والمانع لمن كفر. الذي يتولى عباده المؤمنين لإيمانهم، فيهديهم ويرعاهم، ويجيب دعاءهم، ويكشف كرباتهم عند استغاثتهم، ويغفر خطاياهم عند استغفارهم.

الثالث– المربي للناس بشرعه، أو الآمر بالشرع، أو ذو السلطان التشريعي.

والمعنى الأول من هذه الثلاثة لا يستطيع أحد أن يدعيَها لنفسه أو لغيره، بل كل البشرية تؤمن بها لله وحده، أما الثاني والثالث فقد أشرك فيهما كثير من الناس مع الله غيره بالباطل. وكلها في حق الله تدل على أن الله هو الرب الفاعل الحق والحقيقي والمطلق في هذا الكون، بالخلق والتدبير والإحياء والإماتة والقهر، والنفع والضر والعطاء والمنع والهداية والحفظ والرعاية، وكذلك التشريع الحق لمن أراد السعادة في الدنيا والآخرة.

أولا– الرب: المالك والخالق والمدبر للكون:

لقد جاءت كلمة الرب بهذه المعاني في القرآن في حق الله وحده، قال تعالى {**رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق**} الصافات5، وقال تعالى {**فسبحان الله رب العرش عما يصفون**} الأنبياء22. وهي بالفعل أسماء تدل على صفات لا يستطيع أحد أن يدعيَها لنفسه أو لغيره. ولذلك فكل الناس يؤمنون بها لله وحده، ولم ينكرها أحد في حق الله تعالى.

1– فهذا إبليس يقر أن الله خالقه في قول الله تعالى على لسانه {**قال رب فأنذرني إلى يوم يبعثون** ...إلى أن قال ... **قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين**} الحجر36. وهو نفسه يقول لربه {**خلقتني من نار وخلقته من طين**} ص76. وليس هناك أكفر من إبليس الذي ليس له عمل إلا إغواء بني آدم، فهو الذي أقسم بعزة ربه خالقه ليغوين الناس أجمعين {**قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين**} ص82.

ولذلك فإن كلمة الرب يقصد بها المالك والخالق والرازق إذا جاءت في القرآن على لسان كافر، أو يخاطب بها أحد الأنبياء قومه قبل أن يسلموا.

2- فهذا سيدنا نوح يقول لقومه {**أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم**} الأعراف63، أي من ربكم الذي تقرون به مالكا وخالقا لكم.

3- وهؤلاء عاد قوم سيدنا هود يخاطبونه {**قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة**} فصلت14 أي مالكنا وخالقنا ورازقنا.

4- وهذا سيدنا موسى يقول لفرعون {**وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين * حقيق علي أن لا أقول على الله إلا الحق، قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل**} الأعراف104 أي من ربكم الذي تقرون به خالقا ورازقا لكم. هذا بدليل أن فرعون رد على موسى قائلا {**قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين**} الأعراف 106، فلو كان فرعون ينكر أن الله خالقه وخالق السموات والأرض لما طلب من موسى آية تدل على أنه رسول صادق، ولقال له: أنا الرب الخالق الرازق والمدبر لهذا الكون. ولذلك لما كذب فرعون موسى واتهمه بأنه مسحور، قال له موسى {**لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبورا**} الإسراء.102

5- وهذا الأمير القبطي من أمراء فرعون الذي أسلم يقول وهو يخطب في مجلس فرعون {**أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم**} غافر28 أي من ربكم الذي تعرفونه خالقا لكم. وغير ذلك من الآيات كثير.

6- وهؤلاء مشركو العرب يقرون بأن الله خالقهم {**ولئن سألتهم: من خلقهم؟ ليقولن الله فأنى يؤفكون**} الزخرف87، ويقرون بأن الله خالق السموات والأرض ومسخر الشمس والقمر {**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون**} العنكبوت61، ويقرون بأن الله رازقهم ومالك سمعهم وأبصارهم ومخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ومدبر الأمر {**قل: من يرزقكم من السماء والأرض، أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر؟ فسيقولون الله، فقل: أفلا تتقون**} يونس23، ويقرون بأن الله رب الأرض ومن فيها، ورب السموات السبع ورب العرش العظيم، وبيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه {**قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون * سيقولون لله، قل أفلا تذكرون * قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل فأنى تسحرون * بل أتيناهم**

بالحق وإنهم لكاذبون} المؤمنون84. وهذه الآيات تعني أنه إذا كانوا يقرون بكل هذه الأفعال لله وحده فأين أعمالهم هم تجاه الله؟ أين عبادتهم لله؟ أين تأليههم له سبحانه؟ أفلا يتذكرون أفلا يتقون؟

ولذلك فقد أنكر الله علي مشركي العرب اتخاذهم أولياء مع الله في الوقت الذي يقرون فيه لله وحده بخلق السموات والأرض، فما أسفه عقولهم! وهذا في الآية 16 من سورة الرعد، وإليك تفسيرها: {**قل من رب السموات والأرض؟ قل الله}** أي استنكر يا محمد على الكافرين فاسألهم: من خالق السموات والأرض؟ ولا تنتظر إجابتهم وقل لهم: إنه الله كما تعرفون وتقرون، {**قل أفتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا}** إذا فلماذا تعتقدون لغيره الشركة معه في النفع والضر فتدعونهم مع الله، {**قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور}** وقل لهم يا محمد إن أعمى القلب عن لزوم عبادة من يُقر له بخلق السموات والأرض لا يستوي مع بصير القلب بذلك، لأن الشرك لا يستوي مع التوحيد، {**أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم؟}** واستنكر عليهم يا محمد أيضا وقل لهم أنتم لم تجعلوا لله شركاء في الخلق، وبالتالي يسهل عليكم توحيده في العبادة لأن الخلق لن يتشابه عليكم، فلماذا تجعلون له شركاء في العبادة؟، {**قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار}** وفي النهاية قل لهم يا محمد: الله خالق كل شيء كما تعلمون فاعبدوه ولا تحتجوا بحلوله وتجليه في مخلوقاته فتعبدونها معه، لأنه واحد أحد متفرد في ذاته ليس كمثله شيء، ولأنه القهار لكل شيء.

وقد خاطب الله كل الناس أن يعبدوا ربا يعرفونه خالقا لهم جاعلا لهم الأرض فراشا والسماء بناءً، رازقا لهم بإنزال المطر، قال تعالى {**يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون}** البقرة21.

ثانيا – الرب: المكافئ: ولي المؤمنين ومخزي الكافرين، النافع الضار، المعطي المانع، القابض الباسط .. إلخ

إنه سبحانه وتعالى الذي يتولى عباده المؤمنين لإيمانهم، فيهديهم ويرعاهم ويحفظهم، ويجيب دعاءهم، ويكشف كرباتهم عند الاستغاثة، ويغفر خطاياهم عند الاستغفار.

فكما أنه سبحانه وتعالى القيوم القائم على تدبير أمور هذا الكون لا تأخذه سنة ولا نوم، فكذلك هو سبحانه وتعالى رب الإنس والجن الذي يهديهم ويجيب دعاءهم ويغيث غوثتهم، فيشفيهم من المرض

ويكشف عنهم السوء ويعينهم في النوائب، ويتولاهم برعايته، ويحفظهم بحفظه. وقد جاءت كلمة الرب بهذا المعنى في حق الله تعالى:

1- **فهو سبحانه الهادي:** قال تعالى بعد أن وصف المتقين في أول سورة البقرة: {**أولئك على هدى من ربهم**} أي من ربهم الهادي، هو الذي هداهم. وقال تعالى {**كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد**} إبراهيم1، أي بإذن ربهم الذي يهدي من الظلمات إلى النور. وقال تعالى عن هدايته للنحل: { **وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون * ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون** }النحل68،69

2- **وهو سبحانه الغفار:** فهذا سيدنا نوح يدعو قومه {**استغفروا ربكم إنه كان غفارا**} نوح10، أي ربكم الذي تقرون به خالقا هو وحده الذي يملك أن يغفر ذنوبكم إن آمنتم به، وليست لهذه الأصنام أي شفاعة عنده بالغفران. وسيدنا موسى دعا ربه الغفور الرحيم {**رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك، وأنت أرحم الراحمين**} الأعراف151. والله سبحانه يدعو الناس إلى ربهم الغفور {**وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين**} آل عمران133. والله يخبر رسوله أنه ذو مغفرة وذو عقاب شديد {**ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب** }الرعد6

3- وهذا سيدنا إبراهيم يتبرأ من أرباب المشركين ويعلن إيمانه بالله وحده الهادي، الشافي من المرض، الغفار للخطايا {**فإنهم عدو لي إلا رب العالمين، الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين، وإذا مرضت فهو يشفين، والذي يميتني ثم يحيين، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين**} الشعراء77، فقد كان المشركون يعتقدون في أصنامهم ملكية الشفاعة بالنفع والضر وإجابة الدعاء عند الله، وهي عقيدة كل المشركين، ولذلك فإنهم سيتحسرون يوم القيامة ويقولون لأصنامهم {**والله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسويكم برب العلمين**} الشعراء97 أي نسويكم في الاعتقاد برعايتكم ونفعكم وضركم وإجابتكم للدعاء وكشفكم للكروب.

4- وقد اجتبى الله سيدنا يوسف، فقال له: {**وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم**}يوسف6.

5- وهذا سيدنا يوسف يقول: {**قال معاذ الله، إنه ربي أحسن مثواي**} يوسف23 أي إن الله ربي حفظني ورعاني فنجاني من الجب وأحسن مثواي ومنزلي في هذه الدار، فسخر لي عزيز مصر وزوجته ليقوما بذلك. ومن الغريب أن جل المفسرين فسروا {**ربي**} هنا بعزيز مصر، بحجة أنه قال لامرأته {**أكرمي مثواه**} يوسف21. ونحن نعلم في اللغة أن الضمير يعود إلى أقرب اسم إلا بدليل قوي يصرفه لغيره، وأقرب اسم للضمير في {إنه} هو الله. ولا داعي هنا للبحث عن دليل قوي يصرف الضمير إلى غير الله لأن الجمع ممكن بأن يكون الله هو الذي رعاه بتسخير عزيز مصر له.

6- وسيدنا يوسف كغيره من الأنبياء حفظه وعصمه الله ربه، فصرف عنه السوء والفحشاء بفضل استخلاص ربه له وبفضل مراقبته هو لربه، فلقد همت امرأة العزيز به تريد الفحشاء، ولولا استخلاص ربه له ومراقبته هو لربه لهَمّ بها كعادة البشر، قال تعالى: {**ولقد همت به، وهم بها لولا أن رأى برهان ربه، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء، إنه من عبادنا المخلصين**} يوسف24، أي لولا مراقبته لله ربه الذي حفظه ورعاه وعصمه لهَمّ بها كما هي خصال البشر. ولذلك فإن التمنع مع القدرة من المرأة الجميلة في الخلوة مع طلبها من خصال الأنبياء؛ من هنا حرم الله الخلوة بالأجنبية أصلا، قال ص: لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما.

7- ولما ازداد مكر وكيد امرأة العزيز بسيدنا يوسف وهددته فقالت: ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين، استغاث بربه الذي يحفظه ويرعاه فقال {**رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه، وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين**} يوسف33. فهو ينادي ربه الذي يحفظه ويرعاه ويجيب دعاءه أن يصرف عنه كيد النساء {**فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم**} يوسف.34

8- وسيدنا ذكريا دعا ربه **الوهاب** وقال: {**رب هب لي من لدنك ذرية طيبة، إنك سميع الدعاء**} آل عمران.38

9- وسيدنا سليمان دعا ربه **أن يوفقه** لشكر النعمة ولعمل الصالحات {**رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه**} النمل.19

10- وسيدنا أيوب استغاث بربه أن يشفيه من مس الشيطان. فشفاه ووهبه أهله بعد أن فقدهم. قال تعالى: {**واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب * اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب * ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب**} ص.41

11- والله يتولى أمر نبيه محمد ص، حتى فيما يخص زوجاته رضوان الله عليهن، فقال سبحانه وتعالى: { **عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً** }التحريم5.

12- والله عز وجل يلفت نظر نبيه ص إلى أن الكعبة التي حفظها من أصحاب الفيل هو ربه الذي سيحفظه ويرعاه، ويحفظ دعوته وينصره ويمكّن له، قال تعالى { **ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل** } الفيل1

13- والله سبحانه هو رب المؤمنين الذي ينصرهم بملائكته، قال تعال: {**إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين *بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين** }**آل عمران**124-125، {**إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفرو الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان** }الأنفال12، { **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون**} الأنفال5 .

الشرك في هذا المعنى:

إن كثيرا من البشر قد أشرك مع الله أربابا أخرى باطلة من الملائكة والنبيين والصالحين بهذا المعنى، رمزوا لهم بأصنام فعبدوها. فكل المشركين يعتقدون أن أربابهم هذه تنفع وتضر وتكشف الكروب وغير ذلك، من حيث إنها وسائط تملك الشفاعة لهم أو عليهم عند الله. وقد يبررون ذلك بأن فيهم سرا من أسرار الله، وما هذه إلا عقيدة الحلول التي تعمل شياطين الجن على تثبيتها كما ذكرنا. ومن هنا يقدسونها ثم يؤلهونها بتقديم طقوس العبادة لها عسى أن تقربهم من الله.

1- فهؤلاء قوم إبراهيم كانوا يعتقدون النفع والضر في أصنامهم، قال تعالى {**ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين * إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين * قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين * قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين * قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين**}الأنبياء51-56، أي ربكم الذي ينفع ويضر ليس هو هذه الأصنام، وإنما هو الذي تقرون به ربا خالقا للسماوات والأرض، فهو سبحانه ينفع ويضر مباشرة وليس في حاجة إلى وسطاء لكي يقوموا له بذلك، حيث لم يأذن بهذه الشفاعة لأحد.

2- وهؤلاء النصارى يستنكر الله عليهم اعتقادهم في الملائكة والنبيين أنها تملك لهم المغفرة والإعانة والحفظ والرعاية عند الله {**ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون**} آل عمران.80

3- وهؤلاء مشركو العرب كانوا يعتقدون أن أصنامهم تملك الشفاعة عند الله بالنفع والضر. ولكنهم كانوا إذا أصابتهم شدة نسوا عقيدتهم هذه، فإذا عادوا إلى الرخاء أشركوا مع ربهم خالقهم أربابا أخرى تحفظهم وترعاهم وتنفعهم وتضرهم كما يزعمون. وهذا كله في قول الله تعالى {**ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون * ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون**} النحل54، أي يشركون في بربهم خالقهم أربابا أخرى يعتقدون فيهم النفع والضر مع الله .

4- وفي الأمة الإسلامية أناس قليل يعتقدون أن بعض الصالحين في قبورهم يملكون النفع والضر والشفاعة عند الله، وأن الله قد جعلهم وسطاء بينه وبينهم لإجابة الدعاء وكشف الكروب وغير ذلك، ويبررون ذلك بأن هذه القبور فيها سر من أسرار الله يعطيهم هذا الحق. وهذا الاعتقاد يرتبون على أساسه أحقية هذه القبور في التوجه إليها بشعائر العبادة، فيدعونها مع الله ويستغيثون بها ويطوفون حولها ويذبحون لها وغير ذلك. أما الأكثرية فإنهم يدعون الله عند هذه القبور، ويطلبون من الله عند هذه القبور باعتقاد أن الدعاء يكون أكثر قبولا من الله عندها، وهذه بدع وضلالات في العبادة لم ترق إلى الشرك الأكبر.

وهؤلاء القليل من الناس في الأمة الإسلامية لا يمكن إظهار شركهم للجميع إلا بمحاكمتهم أمام محاكم شرعية إن وجدت، وإن لم توجد انشغلنا بالدعوة لإيجادها. وعلى العموم فإن الله يعلم ما في قلوب عباده سواء ثبت لنا كفرهم في الدنيا أم لم يثبت، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار في حكم الله في الآخرة، وهم في الدنيا متروكون.

والكثير من جهال المسلمين يفعلون الطواف والذبح وغير ذلك من مظاهر الشرك لهذه القبور تقليدا وليس اعتقادا، بل يُهيأ لهم أن طوافهم حول هذه القبور وذبحهم لها إنما هو حب للصالحين. ولذلك يجب محاربة هذه المظاهر الشركية أو هذه البدع الضلالة، وهؤلاء يجب إرشادهم وتعليمهم.

ومظاهر الشرك هذه تفتقد-عند أكثر من يفعلونها من المسلمين- لأهم ركن حتى تكون عبادة لغير الله، ألا وهو اعتقاد النفع والضر في المعبود، وهذا الاعتقاد لا يأتي به إلا قليل من بني جلدتنا كما ذكرنا. ويكفي أن نقول بأن الطواف والذبح والنذر لغير الله من الكبائر التي تؤهل صاحبها إلى الشرك الاعتقادي بطول الممارسة لهذه البدع الضلالة. ولا ننسى أن السجود الخالي من اعتقاد النفع والضر في المسجود له كان يستخدم للتحية فيمن قبلنا، كما جاء في القرآن عن سجود أبوي يوسف له {**ورفع أبويه على العرش**

وخروا له سجدا} يوسف99، وكما جاء عن سجود الملائكة لآدم. وفي شرعنا فإن هذا محرم، ومن الكبائر. أما إذا صاحبه اعتقاد فإنه الشرك الأكبر.

وهذا الفهم مفيد جدا في تحديد طريقة دعوة هؤلاء المسلمين الذين يأتون بمظاهر الشرك، فلن تكون بالمواجهة والتضليل ولكن بالحكمة عن طريق الاستدراج والاستيعاب والتصحيح بالنفَس الطويل الذي قد يستغرق جيلا أو أكثر.

ويجب على المسلم البراءة من الشرك، لقوله تعالى: { قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولي دين}. أما البراءة من المشركين أنفسهم ومناصبتهم العداء فلا يكون إلا لمن أعلن عداءه للمسلمين بسبب إسلامهم، ودليل ذلك سورة الممتحنة كلها وما جاء في سورة التوبة.

ثالثا – الرب: المشرّع، لشعائر الدين ولمنهج الحياة:

جاءت كلمة الرب في القرآن في حق الله سبحانه وتعالى بمعنى المربي للناس بالتشريع لهم، أو ذو السلطان التشريعي:

1- {**ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام، وإنه للحق من ربك، وما الله بغافل عما تعملون**} البقرة149. فالله عز وجل يشرع للمسلمين أينما كانوا أن يتوجهوا وجهة واحدة إلى الكعبة بعدما كانت وجهتهم إلى بيت المقدس ليربيهم على معاني الوحدة بينهم والتميز عن غيرهم.

2- {**يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى، الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى، فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم، ولكم في الحياة قصاص يا أولي الألباب لعلكم تتقون**} البقرة178.

فالله عز وجل في هذه الآية يربي المجتمع المسلم كله بتشريع القصاص. فأوجب عليهم أن ينصّبوا الخليفة أو الحاكم؛ لكي يقيموا الدين به، لأن الخطاب لهم وإقامة الدين للحاكم، ومن هذا الدين الحدود، ومن هذه الحدود القصاص، فيقتص للمقتول من قاتله بالمساواة دون بغي أو عدوان، فإن ترك ولي المقتول القود وأسقط القصاص راضيا بقبول الدية، فاتباع من ولي المقتول للقاتل يطلب منه الدية بالمعروف بلا عنف أو إرهاق، وأداء من القاتل للدية إلى الولي مع إحسان الكلام وتطييب الخاطر، وبلا مطل ولا بخس. ذلك تخفيف من ربكم الذي يربيكم بهذا الشرع، ورحمة منه بكم. نعم إن الله هو ربنا يربينا على العدل والرحمة،

فجعل القصاص حقا لأولياء المقتول إذا طالبوا به وذلك عدل، وشرع الدية إذا أسقطوا القصاص عن القاتل وذلك رحمة. فمن اعتدى على القاتل بعد قبول الدية فله عذاب أليم في الآخرة. ثم يأتي ما يؤكد الأبعاد التربوية لهذا التشريع فينص الله تبارك وتعالى على أن في القصاص حياة للمؤمنين لأن الرجل إذا علم أنه إذا قَتل نفسا قُتل بها يتأدب ويرتدع وينزجر عن القتل، فيحفظ حياته وحياة من أراد قتله، فتصان دماء المجتمع المسلم كله.

3- {**ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم، فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام، واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين**} البقرة198.

أي لا حرج ولا إثم عليكم في التجارة في أثناء الحج فإن التجارة الدنيوية لا تنافي العبادة الدينية كما كنتم تتصورون، فلا جناح عليكم أن تبتغوا الرزق من ربكم رازقكم، فهو الذي يشرع لكم ذلك ليربيكم على التيسير ويبعد عن أذهانكم أشباح التعسير.

4- {**ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم، وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون * إن الله ربي وربكم فاعبدوه، هذا صراط مستقيم**} آل عمران50-51.

يخبر سيدنا عيسى بني إسرائيل أنه جاء مؤيدا لرسالة موسى ولتشريعات التوراة بعد نسخ بعضها. وقال لهم: قد جئتكم على ذلك بآيات من الله ربكم خالقكم ذي السلطان التشريعي عليكم، الذي يريد أن يربيكم بتشريعات هذه التوراة بعد نسخ بعضها، وبما أنزل عليّ من الإنجيل، فاتقوا الله وأطيعون فيما أمرني به، إنه ربي وربكم يأمرني ويأمركم فاعبدوه معي بالتحاكم لشرعه، فهذا صراطه المستقيم.

5- {**اتبع ما أوحي إليك من ربك، لا إله إلا هو، وأعرض عن المشركين**} الأنعام106.

أي لا تشغل قلبك يا محمد، أنت وأتباعك بإغراءات المشركين، الذين يحاولون صرفكم عما يوحى إليك من شرع ربك الذي يريد أن يربيك ويوجهك ويتعبدك به أنت وأتباعك، فاعبد ربك - باتباع هذا الشرع - مع العابدين، فإنه لا شيء في هذا الكون إلا ويعبد الله ربه.

6- {**قل لا أجد في ما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه، إلا أن يكون ميتة، أو دما مسفوحا، أو لحم خنزير فإنه رجس، أو فسقا أهل لغير الله به، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم**} الأنعام145.

أي قل يا محمد لكفار مكة ليس شيئا محرما من الطعام كما تدّعون إلا الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله، فهذا شرع الله ربنا من قبلي ومن بعدي. فمن اضطر أيها المؤمنون إلى أكل

شيء من هذه المحرمات فلا إثم عليه إن كان غير باغ يقصد التلذذ بأكلها ولا عاد مجاوز قدر الضرورة التي تدفع الهلاك، فإن ربكم – الذي يربيكم بهذا الشرع على طاعته ويحفظكم ويرعاكم من أضرار هذه المحرمات – غفور، يغفر لمن اضطرته الضرورة لأكل الحرام، ورحيم ييسر شرعه على عباده.

7- {**قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا، فإن شهدوا فلا تشهد معهم، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون**} الأنعام150

أي قل يا محمد للمشركين: أحضروا لي من يشهد لكم على أن الله حرم هذه الأشياء التي تحرمونها، فإن شهدوا زورا فلا تصدقهم، ولا تتبع أهواءهم لأنهم مكذبون بشرائعنا (آياتنا) ولا يصدقون بالآخرة، وهم بربهم – المشرع الحق – يعدلون فيجعلون له أندادا في التشريع، أو يجعلون معه أربابا تملك حق التشريع.

8- ثم يأتي بعد ذلك مباشرة قول الله تعالى: {**قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم، ألا تشركوا به شيئا، وبالوالدين إحسانا، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق، نحن نرزقكم وإياهم، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون * ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط، لا نكلف نفسا إلا وسعها، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى، وبعهد الله أوفوا، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون * وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون**} الأنعام151-153

أي تعالوا أتل ما حرم ربكم – الذي يريد أن يربيكم بشرعه ومنهجه – عليكم: ألاّ تشركوا به شيئا، فلا تعتقدوا معه أحدا يملك النفع والضر فتدعونه مع الله، ولا تعتقدوا معه أحدا يملك حق التشريع فتتحاكموا إليه. ثم يعدد أهم الشرائع الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، ثم يقول إن هذه العقيدة وهذه الشرائع هي صراطه المستقيم.

9- {**اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء، قليلا ما تذكرون**} الأعراف3.

أي اتبعوا أيها الناس هذا القرآن الذي أنزل إليكم من الله ربكم الذي يريد أن يربيكم ويتعبدكم بما فيه من الهدى والنور، من عقيدة وشعيرة وشريعة ومنهاج حياة. ولا تتبعوا من دون الله –ربكم – أولياء وأرباب باطلة كالأحبار والرهبان والكهان والطواغيت، تُوَلّونهم أموركم وتطيعونهم فيما يشرعون لكم.

10- (**يأأيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين، إن الله كان عليما حكيما * واتبع مايوحى إليك من ربك، إن الله كان بما تعملون خبيرا**) الأحزاب 1-2

فالنداء موجه إلى الأمة من خلال نبيها، أن تتقي غضب الله وعقابه ولا تطع الكافرين والمنافقين في إغرائهم لها باتباع أهوائهم وتشريعاتهم التي تخالف دينهم، بل عليهم أن يتبعوا ما أوحاه الله إلى نبيه من القرآن والسنة .

11- {**يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم، لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، وتلك حدود الله، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه، لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا**} الطلاق1.

أي يا أيها النبي ويا أيها المؤمنون إذا أردتم تطليق النساء فطلقوهن في الطهر قبل المس مستقبلاتٍ للعدة. ولا تطلقوهن وقت الحيض لكي لا تطول عليها العدة فتتضرر، ولكي لا ينفر الزوج منها فيتسرع في طلاقها بخلاف ما إذا كانت طاهرا. وكذلك لا تطلقوهن بعد الجماع فقد يحدث منه حمل فتطول العدة إلى وضع الحمل، وفي ذلك ضرر بالمرأة. واضبطوا العدة وأكملوها ثلاثة أقراء كاملة. واتقوا الله ربكم وسيروا على هذا المنهج الذي شرعه لكم ليربيكم به على السلوك الذي ينفعكم في الدنيا وتنالون به رضا ربكم وثوابه في الآخرة. ولا يخرج الرجلُ المرأةَ من مسكن الزوجية حتى تنقضي العدة إلا إذا أتت بفاحشة كالزنى أو سب الأصهار، ولا تخرج المرأة باختيارها كذلك. فهذه شريعة الله وحدوده ومحارمه، فمن تعداها فقد ظلم نفسه في الآخرة بتجاوز أمر الله، وفي الدنيا بتفويت إمكان إرجاع زوجته إليه لتجاوزه طلاق السنة. فلا ينبغي على الرجل التسرع فلعل الله يقلب قلبه من بغضها إلى حبها فيندم على الطلاق .. ومعظم سورة الطلاق تتناول الأحكام الأسرية المترتبة على الطلاق، كالعدة والنفقة والسكنى وأجر المرضع وغير ذلك.

والمهم هنا هو ملاحظة هذه المعاني التربوية في شرع الله والتي أشار إليه قوله تعالى: **واتقوا الله ربكم**. وهذا يدل على أن شرع الله وحدوده وقوانينه لا يراد منها العقاب وإن كان العقاب منها وإنما يراد منها توجيه وتربية المجتمع على الفضيلة، والتأثير في سلوكياته بالإيجاب. ولذلك فإن تطبيق شرع الله كلاّ متكاملا يعد من وسائل الدعوة والتربية كما أنه من غاياتها. وبالمقابل نقول إن القوانين الوضعية تؤثر بالسلب في سلوكيات المجتمع وتربيه على الرذيلة، وتعد أيضا من عوائق الدعوة إلى الله.

12- إن التشريع حق لله وحده لا شريك له، قال تعالى: {**قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق، فجعلتم منه حراما وحلالا، قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون**} يونس59، وقال تعالى: {**ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب: هذا حلال وهذا حرام، لتفتروا على الله الكذب، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون**} النحل116.

الشرك في هذا المعنى:

1- قال تعالى: {**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله**} التوبة31، فأرباب جمع رب، والمعنى أن اليهود والنصارى جعلوا أحبارهم ورهبانهم أحقاء بالتشريع ووسطاء بينهم وبين الله في ذلك، أي أعطوهم سلطة التشريع سواء لشعائر الدين بالابتداع أو لمنهج الحياة بالتحليل والتحريم من عند أنفسهم بدون اللجوء إلى الوحي، ولو تقيدوا بالوحي لكانوا مجتهدين ولم يكونوا مشرعين. ولكن أنى لهم وقد حرفوا كتبهم.

2- قال تعالى: {**ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله**} آل عمران64، يدعو الله المسلمين أن يقولوا لأهل الكتاب: هيا لا نعطي لأحد منا أو منكم حق التشريع، لا لأحباركم ورهبانكم ولا لأحد منا، ولكن نحكم بدليل من وحي، وحينئذ سنصل إلى كلمة سواء.

3- وكذلك كان مشركو العرب يشركون مع الله أربابا أخرى من قادتهم وزعمائهم يشرعون لهم. ولذلك فقد استنكر الله عليهم في قوله تعالى: {**أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله**} الشورى21، وشركاء هنا تعني أرباباً لأن التشريع فعل الرب، يربي عباده بتشريعه. وقد وصل الأمر بهؤلاء الزعماء الأرباب أن زينوا لقومهم قتل أولادهم وجعلوه مكرمة في أعينهم، قال تعالى {**وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم**} الأنعام137.

4- وهذا النمرود يرى أن دعوة إبراهيم تتفشى بين الناس وأن هناك خطورة على سلطته التشريعية في الناس، فأمر أن يأتي إبراهيم بين يديه. فقال نمرود في حشد من الناس لإبراهيم: لقد سمعت أنك تقول أن ربك الذي يشرع لك هو الله وحده ولست أنا، فكيف ذلك وقد أوكلني الله بهذا وأعطاني هذا الحق بدليل هذا الملك الذي خصني الله به، ألا تراه. فقال إبراهيم: ربي الذي أومن له بسلطة التشريع هو مباشرة الذي تعرفه وتقر به أنت أنه يحيي ويميت، وأنا رسوله، أمرت أن أبلغ شرعه ودينه. فانزعج نمرود وقال: كذلك أنا لي حق من الله أن أحيي من حكمت عليه بالإعدام، وأميت من حكمت ببراءته. فأراد إبراهيم أن يفوت الفرصة على ذوي الأهواء من حاشية الملك الحاضرين كي لا يخلطوا على البسطاء معنى الحياة ومعنى الموت المقصودين، فقال إبراهيم: إن ربي الذي أومن بسلطة التشريع له وحده هو الله الذي تقر به أنت مدبرا للكون، فهو يأتي بالشمس من المشرق كما تعرف، فأت أنت بها من المغرب. فبهت نمرود لأنه يقر بذلك بالفعل. قال تعالى {**ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت، قال أنا أحيي وأميت، قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر، والله لا يهدي القوم الظالمين**} البقرة.258

5- وفرعون تربب على الناس بهذا المعنى، فقال: {**أنا ربكم الأعلى**} النازعات24 وهو لم يقصد إلا أن يقول: أنا ذو السلطان التشريعي الأعلى عليكم، أشرع لكم منهج حياتكم، فأربيكم بتشريعي وقانوني. ولم يقصد أنه خالق أو رازق أو مدبر الكون لأن فرعون وقومه يؤمنون بهذا كله لله كما ذكرنا من قبل. وقوله: الأعلى، يدل على أنه كان يصرح لأرباب صغيرة مثل السدنة والسحرة أن تشرع للناس بعض التشريعات الفرعية، ولكن بتوقيعه وموافقته في النهاية.

وقد قال فرعون هذه الكلمة بعدما أمر الله سيدنا موسى أن يذهب لدعوته {**اذهب إلى فرعون إنه طغى، فقل هل لك إلى أن تزكى، وأهديك إلى ربك فتخشى**} النازعات17 أي اذهب يا موسى إلى فرعون لتنهاه عن طغيانه، حيث ادعى حق السلطة التشريعية على الناس بحجة الوساطة بين الله وعباده، وقل له: ليس لك هذه السلطة لأنك لست إلا عبدا من عباد الله، وأدعوك أن تزكي هذه العبودية لله بأن تؤمن بسلطة التشريع له وحده عن طريق رسله، وتنتهي عن ادعاء حق التشريع لنفسك، وقد بعثني الله بهذا التشريع الذي رضيه لعباده، فاتبعني تهتد إلى ربك المشرع الحق الذي تقر به خالقا للسماوات والأرض. فلما فهم فرعون أن موسى يريد نزع سلطة التشريع منه وردها لله، وأن دعوته هذه قد انتشرت بين الناس، ثارت ثورته وركب رأسه وجمع الناس وقال فيهم: **أنا ربكم الأعلى**. وقبل أن يقول فرعون هذه الكلمة جادل موسى أمام الملإ: {**قال فرعون وما رب العالمين**} الشعراء23 أي من المشرع للعالمين من الناس، قال موسى: هو الذي تقر به أنت وقومك خالقا لكم ولآبائكم وللسماوات والأرض {**قال رب السموات والأرض وما بينهما، إن كنتم موقنين * قال لمن حوله ألا تسمعون * قال ربكم ورب آبائكم الأولين**} الشعراء24. ونلاحظ هنا أن موسى مأمور بنزع سلطة التشريع فقط من فرعون لا سلطة التنفيذ، بدليل أن الله أمره هو وأخاه هارون أن يلينوا القول في دعوتهم لفرعون {**اذهبا إلى فرعون إنه طغى * فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى**} طه43، لعله أن يهتدي فيستمر في سلطته التنفيذية، ولكن بشرع الله الذي جاء به موسى.

6- ومن قبل فرعون موسى كان الملك الهكسوسي، أيام سيدنا يوسف، يؤمن المصريون له بالسلطة التشريعية. ولذلك نجد سيدنا يوسف يقول لصاحبي السجن من المصريين: {**أما أحدكما فيسقي ربه خمرا**} يوسف42، {**وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه**} يوسف42. وعندما جاءه رسول الملك ليخرجه من السجن قال له {**ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن، إن ربي بكيدهن عليم**} يوسف50. وانظر إلى ذكاء سيدنا يوسف في دعوته

غير المباشرة لرسول الملك عن طريق المقارنة بين "**ربك**" أي الملك سيدك الذي تؤمن له بسلطة التشريع، و "**ربي**" أي الله الذي لا أومن بسلطة التشريع إلا له.

ونلاحظ أن أمر سيدنا يوسف قد انتهى إلى التمكين الجزئي في ظل سلطة الملك وقانونه. فعندما سنحت الفرصة طلب سيدنا يوسف من الملك أن يجعله على خزائن الأرض؛ ففعل الملك وترك له تسيير اقتصاد الدولة، فاستغل هذا المنصب – الذي يتيح له فرصة اللقاء بكل الناس – في توسيع رقعة دعوته إلى الإسلام عقيدة، ثم قضى بقانون الله بقدر إمكانه في حدود وزارته.

وهنا درس لايفوتنا وهو جواز محاولة التمكين الجزئي أو قبوله سواء في الوزارة أو المجالس النيابية أو في النقابة أو في غير ذلك بشرطين، الأول: أن يكون ذلك بنية الدعوة، والثاني: ضمان المحافظة على الشخصية الإسلامية في هذه الأماكن.

7- ومازال من الناس من يقرون بحق التشريع للبشر. فحديثا بنيت حضارة الغرب التي يقودها العلمانيون على أن الشعب هو مصدر التشريع. وما حقيقة الديمقراطية إلا تشريع الشعب لنفسه من خلال آليات الديمقراطية المعروفة. وهي في حكم الإسلام تعني اتخاذ الناس بعضهم بعضا أربابا من دون الله. وللديمقراطية شق آخر لا يتعارض مع الشورى لا نقصده هنا، ألا وهو اختيار الحاكم ومراقبته.

إن السلطة تنقسم إلى سلطة تشريعية وسلطة قضائية وسلطة تنفيذية. فالأولى تسمى أيضا بالحاكمية التشريعية وهي في الإسلام من حق الله الرب المشرع سبحانه، ومن ادعى لنفسه هذا الحق فقد تربب على الناس وجعل نفسه شريكا مع الله في التشريع، قال تعالى: {**أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله**} الشورى21. إنه في الحقيقة فرعون الطاغوت الذي قال: أنا ربكم الأعلى.

إن رسول الله ص ليس مشرعا من نفسه، ولكنه مبلغ ومبين تشريع ومنهاج ربه كما أمره سبحانه، أي أن سنة رسول الله تعد في حقيقتها تشريعا لله، كما قال تعالى: {**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم**} النحل44 أي أنزلنا إليك يا محمد القرآن لتبين للناس بالسنة ما نزل إليهم، وقد يأتي في بعض الكتب أن رسول الله ص مشرع، ولكن هذا بنية أنه مبلغ شرع الله فحسب. والمجتهدون في الإسلام ليسوا أيضا مشرعين، لأن الاجتهاد مقيد بالوحي وهو: استنباط أو سن أحكام جديدة من المصدرين القرآن والسنة، أو اجتهاد في منطقة العفو التشريعي لايخالف الكتاب والسنة.

واستفادة المسلمين من تقنيات الكفار لا تسمى تشريعا. وللمسلمين أن يفعلوا بشرط عدم ربط ذلك باتباعهم أو الركون إليهم. فهذا رسول الله قد حفر خندقا حول المدينة في غزوة الخندق وقاية من الأعداء، وهي تقنية فارسية أشار بها سيدنا سلمان الفارسي على سيدنا رسول الله.

أما السلطتان القضائية والتنفيذية وشكلهما، فالإسلام يجعل الكلام عن ذلك في باب الفقه، الذي يجوز الخلاف فيه ويتعدد فيه الصواب، وليس في باب العقيدة التي ليس فيها إلا الحق أو الباطل. والفقهاء يقولون أن الأولى مهمة قضاة الشرع المؤهلين لذلك، والثانية هي مهمة الحاكم الذي ينفذ شرع الله (وهي ما تسمى بالحاكمية السياسية، أو السلطان السياسي)، وأن هاتين السلطتين تكليف من الله لأصحابهما وليست تشريفا لهما.

والحاكم في الإسلام نائب عن الأمة وسلطته التنفيذية مشروعة من الله بسبب اختيار المسلمين له، قال تعالى (**وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**) النساء 59، منكم: أي اخترتموه منكم. أي أن الأمة هي مصدر السلطة السياسية للحاكم. فإذا تسلط حاكم على الأمة فهو حاكم غير مشروع من الله، عليه ذنب تسلطه على الأمة، وعلى الأمة بعلمائها أن تسعى للتغيير ولرفع هذا المُلك الجبري كما سماه رسول الله ص.

فالحاكم المسلم في حكم الإسلام هو هذا القائم بالسلطة التنفيذية السياسية فقط على المسلمين باختيارهم. وفي الملل الأخرى كان الحاكم دائما نائبا عن الله يملك سلطة التشريع، وهذا هو الطاغوت في حكم الإسلام.

وعلى المسلمين أن يسنوا القوانين الشرعية من الكتاب والسنة التي تضمن استمرار الحاكم نائبا عن الأمة خادما لها، كأن يشترط اختياره وانتخابه من بين عدة أفراد، وكأن تحدد مدة حكمه، وتضمن حرية مراقبته ومساءلته، وتضمن الحريات السياسية عموما، وحرية الدعوة للدين الكامل الشامل الذي منه السياسة والاقتصاد وغير ذلك.

والحاكم في هذا العصر لا يكون مشرِّعا من دون الله إن أتى إلى الحكم ووجد منهجا لغير الله قائم، تحرسه قوى الطاغوت العالمية، فلم يستطع تبديله بشرع الله على الفور، طالما أنه: 1) لم يروج لمناهج الكفار، 2) ولم يحمل شعبه عليها، 3) ولم يحارب دعاة منهج الله، 4) ولم يستمر في تغيير ما بقي للمسلمين من شرع الله. فإن فعل هذا فقد جعل نفسه ربا يشرع لأن هذه الأفعال تدل على رضاه بشرع غير الله.

وعلى الحاكم تشجيع دعاة الصحوة وطلائعها من أجل النهوض، فإن لم يستطع خوفا من طاغوت القوى العالمية فليس هناك أقل من تركهم يعملون بشكل طبيعي كأحد القوى السياسية الموجودة دون معاداة وحرب لهم. وإذا لم يترك للأمة فرصة تقرير مصيرها على هذا النحو فقد خانها كنائب عنها، وعلى الأمة حينئذ أن تقوم بإنابة غيره إن كانت لا تريد الفتنة في دينها، فإن لم تستطع فعليها أن تقرر مصيرها بنفسها بقدر

استطاعتها، أو بقدر استطاعة كل فرد فيها، فإذا وصل قدر الاستطاعة إلى الثورة ثارت عليه، وحينئذ فقد حاكمته وأظهرت كفره للعيان وحل دمه.

وهذا كله دليله أن الله قد خاطب الأمة في أوامره الأساسية للدين، والتي لا يمكن تنفيذها إلا بحكومة، قائلا: يا أيها الذين آمنوا، أو باستخدام صيغة الجمع، في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: {**يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى**} البقرة178، وقوله تعالى: {**يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار**} التوبة123، وقوله تعالى: {**والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما**} المائدة38، وقوله تعالى: {**الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين**} النور 2، ولأن هذه الأمور لا يستطيع أن يقوم بها إلا الحاكم، فكأن الله قد أمر المؤمنين أن يختاروا منهم حاكما يقوم بهذه المهام.

4- الرب: المعنى الشامل

إذا لم تكن هناك قرينة في الآية تخصص معنى الرب فالمراد كل المعاني السابقة، فها سورة الفاتحة التي يقرأها المسلم عدة مرات كل يوم تبدأ بـ (الحمد لله رب العالمين) ربنا خالق ورازق ومدبر أمر العالمين وحافظنا وراعينا مجيب دعواتنا وكاشف كرباتنا ومربينا بشرعه القويم وهادينا إلى صراطه المستقيم.

يقول سيد قطب رحمه الله في تفسير سورة الفاتحة: (والربوبية المطلقة هي مفرق الطريق بين وضوح التوحيد الكامل الشامل، والغبش الذي ينشأ من عدم وضوح هذه الحقيقة بصورتها القاطعة. وكثيرا ما كان الناس يجمعون بين الاعتراف بالله بوصفه الموجد الواحد للكون، والاعتقاد بتعدد الأرباب الذين يتحكمون في الحياة. ولقد يبدو هذا غريبا مضحكا. ولكنه كان وما يزال. ولقد حكى لنا القرآن الكريم عن جماعة من المشركين كانوا يقولون عن أربابهم المتفرقة: " ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى". كما قال عن جماعة من أهل الكتاب: "اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله". وكانت عقائد الجاهليات السائدة في الأرض كلها يوم جاء الإسلام، تعج بالأرباب المختلفة، بوصفها أربابا صغارا تقوم إلى جانب كبير الآلهة كما يزعمون! فإطلاق الربوبية في هذه السورة، وشمول هذه الربوبية للعالمين جميعا، هي مفرق الطريق بين النظام والفوضى في العقيدة. لتتجه العوالم كلها إلى رب واحد، تقر له بالسيادة المطلقة، وتنفض عن كاهلها زحمة الأرباب المتفرقة، وعنت الحيرة كذلك بين شتى الأرباب. ثم ليطمئن ضمير هذه العوالم إلى رعاية الله الدائمة وربوبيته القائمة. وإلى أن هذه الرعاية لا تنقطع أبدا ولا تفتر ولا تغيب) انتهى.

1- وانظر كيف يقول الله تعالى لمشركي العرب: إن الله الذي تؤمنون به رازقا مالكا للسمع والبصر مخرجا للحي من الميت وللميت من الحي ومدبرا للأمر هو وحده ربكم الحق الذي ينبغي عليكم أن تتخذوه وحده نافعا ضارا مجيبا للدعاء حقيقا بالتشريع، قال تعالى: {**قل: من يرزقكم من السماء والأرض، أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر؟، فسيقولون الله، فقل: أفلا تتقون * فذلكم الله ربكم الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال، فأنى تصرفون**} يونس32، فإلى أي جهة تنصرفون عن عبادة ربكم بالشعائر وبالتحاكم إلى منهجه.

إن كلمة الرب تأتي بمعناها الشامل في معظم مواضعها في القرآن الكريم. واختزال هذا المعنى وحصره في معنى الخالق في أذهان وقلوب المسلمين هو الذي جعل المسلمين يقرءون القرآن قراءة لا تؤثر في حياتهم.

2- واسمع قول الله تعالى: {**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون**} فصلت30، وقوله تعالى: {**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**} الأحقاف13، فهل ربنا هنا تعني خالقنا، لقد قال إبليس ذلك، ولكن ربنا هنا تعني: يا من آمنا بك وحدك حافظا نافعا ضارا مجيبا للدعاء، فألهناك وحدك بالتوجه لك بالشعائر، ويا من آمنا بك وحدك مشرعا لشعائر الدين ولمنهج الحياة؛ فألهناك وحدك بالاتباع في الشعيرة والشريعة.

3- وهؤلاء أصحاب الكهف، قاموا وأعلنوا براءتهم من: مجيب للدعاء غير الله، ومن سلطان تشريعي لغير الله. ووجهوا وجهتهم لله وحده في الدعاء، ولشرعه وحده في التحاكم {**وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعوَ من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا**} الكهف14. أي ربنا الذي يجيب دعاءنا والذي يشرع لنا هو الذي تعرفونه خالق السموات والأرض. فلن ندعو هذه الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، ولن ننهج من منهج الملك أو نتحاكم لقانونه الذي شرعه من هواه. والدليل على أن معنى المشرع مقصود بالرب هنا هو خروجهم من سلطان مَلِكُهم الذي يدعي حق التشريع لنفسه، بعد فقدانهم الأمل في الإصلاح {**وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله، فأووا إلى الكهف...**} الكهف16 .

4- وهذا مؤمن آل فرعون، الذي كان يكتم إيمانه في قلبه، لما سمع فرعون يقول: {ذروني أقتل موسى} أخذته غضبة في الله وأفصح عن إيمانه، وقال لموسى: {يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك}، ثم توجه إلى قومه يقول لهم {**أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم**} غافر28. فانظر في استخدام كلمة "**ربي الله**" في هذه الآية، إنها لا تعني خالقي، لأن المعركة بين موسى وفرعون كان

أساسها أن الله هو الرب المشرع وليس فرعون كما أوضحنا من قبل. وانظر إلى كلمة "**مِن ربكم**" في الآية، إنها تعني: مِنَ الذي تؤمنون به خالقا لكم.

5- ولذلك فإن نفس هذه الآية استخدمها أبو بكر الصديق ر وهو ينافح عن رسول الله ص في ما رواه البخاري (3678) عن عروة بن الزبير قال: سألت عبد الله بن عمرو بن العاص عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ص، قال: رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ص وهو يصلي، فوضع رداءً في عنقه فخنقه به خنقا شديدا، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه فقال:" **أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم**". فهذا هو استخدام أبي بكر للآية ولم يكن مشركو مكة ينكرون أن الله خالقهم كما بينا بالأدلة من قبل.

6- ويكفي أن كل كلمة رب أو ربنا أتت في القرآن على لسان نبي أو مؤمن أو مؤمنين فهي تعني المعنى الشامل مثل قوله تعالى: {**ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة**} آل عمران8 فكلمة ربنا عندما تخرج من فم مؤمنين يعرفون قيمة الهداية لدرجة خوفهم من زيغ القلوب لابد أنهم يؤمنون به ربا حافظا راعيا، وكذلك هاديا لهم في الحياة بشرعه ومنهجه.

7- وانظر، فقد أذن الله للمسلمين بعد الهجرة أن يقاتلوا المشركين الذين أخرجوا المؤمنين من ديارهم بسبب قولهم: **ربنا الله**، أي لأنهم آمنوا بالله وحده حافظا نافعا ضارا كاشفا للكربات ومجيبا للدعوات، وكذلك لأنهم آمنوا به وحده مشرعا لعباداتهم وعاداتهم وتصوراتهم وأخلاقهم وسلوكهم، وكفروا بكل هذا حقا لغير الله أو شريكا معه أو مالكا للشفاعة عنده، يقول تعالى: {**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز**} الحج40. ومعلوم أن الإخراج لايكون إلا من نظام مشرع من دون الله للخارجين عن شرعه.

8- وانظر لهذا الفرد المسلم كيف يستغني بربه عند محاولة إغوائه بالأرباب الأخرى، قال تعالى: {**قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء**} الأنعام164 أي أغير الله أبغي ربا يربيني بحفظه ورعايته، ويقومني ويوجهني بشرعه ومنهجه وهو خالق ومدبر أمر كل شيء.

9- وقد علَّمنا رسول الله أن نقول في الصباح والمساء: {**رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا ورسولا**} أي رضيت بالله ربا نافعا ضارا، وبالله ربا مشرعا لمنهج حياتي ومؤدبا ومهذبا لسلوكي ومعاملاتي، وإلا فالمسلمون والكفار قد رضوا به خالقا.

10- ولا ننسى أن أول سؤال سيسأل المرء عنه في قبره هو: **من ربك** ؟ أي من الذي رضيت به ربا يربيك بحفظه ورعايته وإجابته للدعاء، وربا يربيك بشرعه ومنهجه في حياتك الدنيا. ولو كان المقصود: من خالقك فسيجيب المسلم والكافر على السواء: ربي الله، وهذا لن يكون.

ولا شك أن هذا الفهم الصحيح لكلمة الرب سيكلف المسلم بذل الجهد لتعلم دينه لكي يمكنه أن يصبغ حياته بمنهج الله، وسيكلفه جهادا لنفسه لكي يستقيم هو على هذا المنهج، في حين أن الإقرار بالله خالقا لايكلف شيئا.

11- والله عز وجل يخاطب الناس جميعا فيقول لهم: {**إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين. أدعو ربكم تضرعا وخفية، إنه لا يحب المعتدين. ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا، إن رحمت الله قريب من المحسنين**} الأعراف54. أي إن ربكم الذي يشرع لكم منهج حياتكم سواء في شعائركم (**ادعو**) أو في نظم حياتكم (**لا تفسدوا**) هو الله الذي تؤمنون به خالقا للسموات والأرض مدبرا للكون بهذا التفصيل الذي أخبركم به (**في ستة أيام ثم استوى على العرش، يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره**). نعم إن خالقنا هو وحده ذو الحق أن يأمرنا بشرع نهتدي به ونحتمي به من طواغيت الأرض (**ألا له الخلق والأمر**).

يقول سيد قطب رحمه الله عند تفسير هذه الآية {إن الله الخالق المهيمن المصرف المدبر هو "ربكم". هو الذي يستحق أن يكون ربا لكم، يربيكم بمنهجه، ويجمعكم بنظامه، ويشرع لكم بإذنه، ويقضي بينكم بحكمه. إنه هو صاحب الخلق والأمر. وكما أنه لا خالق معه فكذلك لا آمر معه} (الظلال1297/3).

12- ومثل هذه الآية، قوله تعالى: {**إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، يدبر الأمر، ما من شفيع إلا من بعد إذنه، ذلكم الله ربكم فاعبدوه، أفلا تذكرون**} يونس3. ومثلها ما سبق في قوله تعالى: {**قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر، فسيقولون**

الله، فقل أفلا تتقون * فذلكم الله ربكم الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال، فأنى تصرفون} يونس31-32.

13- وتأمل أيضا في قوله تعالى: {**ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه، وهو على كل شيء قدير**} الأنعام102 وهذا تفسيرها، {**ذلكم الله ربكم**}: ذلكم الله الذي تقرون بوجوده، والذي عرفكم في كتابه بنفسه (أحد فرد ليس كمثله شيء) وبأسمائه وصفاته، هو ربكم خالقكم كما تقرون، وهو ربكم الذي يهديكم ويجيب دعواتكم ويكشف كرباتكم ويغفر خطاياكم، والذي يشرع لكم شعائر دينكم ومنهج حياتكم، {**لا إله إلا هو**}: الذي تعبده كل الكائنات والذي لا تنبغي ولا تصح العبادة منكم إلا له، {**خالق كل شيء**} كما تقرون وتعرفون، {**فاعبدوه**} فعلا وعملا بالقلب واللسان والجوارح.

14- {**ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو، فأنى تؤفكون * كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون * الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات، ذلكم الله ربكم، فتبارك الله رب العالمين * هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين، الحمد لله رب العالمين**} غافر62-65.

15- وتأمل ما جاء في سورة الشورى المكية التي نزلت في وقت ضعف المسلمين لتحمل معها بشائر التمكين، قال تعالى: {**فلذلك فادع، واستقم كما أمرت، ولا تتبع أهواءهم، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم، الله ربنا وربكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا حجة بيننا وبينكم، الله يجمع بيننا وإليه المصير**} الشورى15. وإليك تفسيرها:

{**فلذلك فادع**}، أي ادع يا محمد ويا دعاة الله من بعده لهذا الدين العظيم، كله: عقيدته وشريعته، شعائره وأخلاقه، معاملاته وعاداته، سياسته واقتصاده، {**واستقم كما أمرت**}، استقم أنت تماما كما أمرت يا خير عبادي، ولتستقم أمتك خير الأمم كما أمرت تماما، فالفرض فرض والواجب واجب والمستحب مستحب والمباح مباح والمكروه مكروه والحرام حرام، {**ولا تتبع أهواءهم**} ولا تتبع أنت ولا تتبع أمتك أهواء اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين وكل الكفار في نظمهم ومناهجهم التي يشرعونها بأهوائهم، فقد حرّف أهل الكتاب ما عندهم من وحي، فليس عندهم إلا الأهواء، وما لم يحرفوه فقد نسخناه، وقد اتبع كل الكفار تشريع أهوائهم فلا يغرنكِ يا خير أمة الأسماء التي يزينون بها أهواءهم مثل الاشتراكية والعلمانية والديمقراطية، فكلها نظم تشرعها أهواؤهم، {**وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب**}، وقل يا محمد لأهل الكتاب: آمنت وآمنت أمتي بكل الكتب السماوية كما أنزلها الله، وأن القرآن قد ختمها وهيمن عليها ونسخها، {**وأمرت**

لأعدل بينكم} أي أمرت أن أحكم بينكم وأمرت أمتي أن تحكم بينكم بشرع الله العدل، فقد كتب الله لنا التمكين والقوامة عليكم رحمة بكم من أنفسكم، **{الله ربنا وربكم}** أي أن الله ربنا جميعا يربينا بشرعه وحكمه، فهو مشرعنا باختيارنا، ومشرعكم قهرا من الله لكم بتمكيننا في الأرض ودورانكم في فلك حضارتنا، **{لنا أعمالنا ولكم أعمالكم}** فأنتم بريئون من أعمالنا ونحن بُرءآءُ من أعمالكم، **{لا حجة بيننا وبينكم}** لا جدال بيننا وبينكم ولا مفاوضات بيننا على أمر الدين، كله: عقيدته وشريعته وأخلاقه ومعاملاته، فقد ظهر الحق وبان كالشمس في رابعة النهار، فنحن على الحق وأنتم على الباطل، وليس بيننا إلا المعايشة للمسالمين والعداء للمعاندين، **{الله يجمع بيننا }** يوم القيامة للفصل **{وإليه المصير}** إليه المرجع والمآب فيجازيكم أيها الكفار نار جهنم وبئس المصير، ويجازينا نحن المؤمنين جنات النعيم .

إن الله هو الرب المشرع الحق، والمؤمنون قد استجابوا لهذا الشرع اختيارا منهم، والكافرون قهرهم الله لشرعه بتمكين المؤمنين في الأرض. إن بُعد المسلمين عن دينهم هو السبب الوحيد الحقيقي لغيابهم عن قيادة العالم، وقد بدءوا في العودة إلى دينهم، وإن نصر الله لآت، وإن المستقبل لهذا الدين.

لاعذر بالجهل في شرك الربوبية:

والإقرار بوجود الله وبربوبيته بالمعنى الأول لم ينكره أحد، ومن حاول لم يفلح، وإنما تغيرت فطرة الناس فكفروا على مدار التاريخ بإشراكهم مع الله أربابا أخرى بالمعنيين الثاني والثالث فقط، والإقرار بربوبية الله بكل معانيها موجود في أصل الفطرة، قال تعالى: **{وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم، قالوا: بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم، أفتهلكنا بما فعل المبطلون}** الأعراف172 .

وهذه الآية تعني أن الله أشهد الناس قبل خلقهم وهم في عالم الذر فسألهم سبحانه: ألست بربكم؟ أي بكل المعاني، فقالوا: بلى شهدنا. لذلك فلا عذر لمن غير فطرته وأشرك في ربوبية الله بالمعنى الشامل، لأن الشرك في الربوبية لايكون إلا جليا في الاعتقاد.

والبشرية متجددة الخلق وكل مولود يولد على الفطرة، ولذلك فإن تغير الفطرة إلى الكفر مكتسب من الإنسان وليس بالوراثة، فلا حجة لأحد أن يقول إنما تغيرت فطرتنا وراثة عن آبائنا. كما أن الآية تدل على أنه ليس لأحد فضل في الإقرار بربوبية الله، ولذلك فإن الإقرار بالربوبية لا يكفي للدخول في الإسلام. وإنما لابد من الإيمان بحق الله وحده في التأله إليه بشعائر العبادة والتوجه لمنهجه وحده في كل نواحي الحياة، والكفر بعبادة غيره، والكفر بأحقية غير شرعه في التحاكم إليه.

<u>الفصل الثالث: الإلـه</u>

الربوبية هي فعل الله، فهو الخالق والمدبر والنافع الضار والمشرع، والألوهية هي فعل المخلوقات تجاه الله، فهو المقدس والمعظم والمعبود والمتحاكم لشرعه. والربوبية والألوهية متلازمان لا ينفصلان، فالأولى تقتضي الثانية، والثانية تتضمن الأولى، فمن أقر لله بالخلق والتدبير والنفع والضر والتشريع اقتضى منه ذلك أن يعظمه ويعبده ويتحاكم لشرعه، ومن عظمه وعبده وتحاكم إلى شرعه تضمن ذلك إقراره وإيمانه بأن الله هو الخالق المدبر النافع الضار المشرع حقا.

تأتي كلمة الإله في القرآن بمعان كثيرة يمكن تقسيمها إلى أربعة معان أساسية:

<u>الأول – الإله: المقدس والمعظم، الذي تصفه القلوب بكل كمال وتنزهه عن كل نقص:</u>

كلمة "**الإله**" بهذا المعنى تطلق على الله بالحق وعلى غيره بالباطل، والإله الحق هو الله سبحانه وتعالى وهو المعبود من الكائنات قدرا ومن المؤمنين من الإنس والجن اختيارا، قال تعالى: {**إنما <u>إلهكم</u> الله الذي لا إله إلا هو، وسع كل شيء علما**} طه 98. والإله الباطل هو المعبود بالباطل من الكافرين من الإنس والجن، قال تعالى: {**قالوا أأنت فعلت هذا <u>بآلهتنا</u> يا إبراهيم**} الأنبياء62.

فإذا عُظم وقدس الله من الإنس والجن فهو الإله الحق، وإذا عظم وقدس غيره فهو الإله الباطل. ولذلك فإن اسم "**الإله**" من أسماء الله الحسنى التي لا تحق إلا له سبحانه، بمعنى أن اعتقاد أحقية غيره في التقديس والتعظيم والتنزيه عن النقص اعتقاد باطل. فهو سبحانه الإله الحق الذي له كل الأسماء الحسنى وكل صفات الكمال والجلال والعظمة والمنزه عن كل صفات النقص.

وعلى هذا فالعبادة التي في معنى كلمة "**الله**" عبادة قهر من الله للكون كله بما فيها الإنسان، والعبادة التي في معنى كلمة "**الإله**" عبادة طوعية من كل المخلوقات لله، واختيارية من الإنس والجن خصوصا، لله بالحق ولغيره بالباطل. فالله هو المعبود قهرا منه لعبيده، والإله هو المعبود طوعا أو اختيارا من عُبّاده. والمؤمنون من الإنس والجن يختارون الله وحده إلها لهم، والكافرون يختارون معه آلهة باطلة صغيرة توصلهم إليه بزعمهم، أو يختارون غيره من دونه.

لذلك فإن كلمة التوحيد: لا إله إلا الله محمد رسول الله، تعني: لا مقدس ولا معظم بكل صفات الكمال ولا منزه عن كل صفات النقص ولا معبود بحق إلا الله عن طريق محمد بن عبد الله، أو لا معبود بحق إلا الإله الحق، لأن ما عبد بباطل غير الله كثير. وهي إعلان من المؤمنين للتحرر من عبادة ما سوى الله، يقولون: لا إله نختاره إلا الإله الحق سبحانه وتعالى الذي خضعت له كل الكائنات، وقد قررنا الخضوع مع

الخاضعين لله رب العالمين باتباع سيد المرسلين محمد بن عبد الله الأمين. ففي الكلمة طلب بتحديد الآلهة الباطلة في كل عصر ثم البراءة منها بهذا الإعلان. إنه إعلان التحرر من كل الآلهة الباطلة، سواء كانت وثنا أو بشرا أو هواً. إنه إعلان تحرر الإنسان من كل ما سوى الله.

قال تعالى: **(الله لاإله إلا هو الحي القيوم، لاتأخذه سنة ولا نوم، له مافي السموات وما في الأرض، من الذي يشفع عنده إلا بإذنه، يعلم مابين أيديهم وما خلفهم، ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء، وسع كرسيه السموات والأرض، ولا يؤوده حفظهما، وهو العلي العظيم)** البقرة255.

أي أن الله هو الذي له كل صفات الكمال والمنزه عن كل صفات النقص، فهو الحي القيوم، وهو الذي لاتأخذه السنة أو النوم، وهو الذي له ما في السموات والأرض، وهو الذي لايشفع عنده أحد إلا بإذنه، وهو الذي يعلم ظاهر وباطن أدعياء الشفاعة والوساطة بين العباد وربهم، وهو الذي لايحيط هؤلاء الأدعياء بشئ من علم الله إلا بما شاء، وهو الذي وسع كرسيه السموات والأرض، وهو الذي لايتعبه حفظ السموات والأرض، وهو العلي العظيم.

وقال تعالى: {**إنما إلهكم الله، الذي لا إله إلا هو، وسع كل شيء علما**} طه98 أي الذي تعظمونه وتقدسونه وتصفونه بكل كمال هو الله وحده، الذي تنطق بعظمته وكمال علمه كل الكائنات. والآية تعني أيضا أن إلهكم الذي يستحق العبادة اختيارا منكم هو الله وحده الذي تعبده كل الكائنات قدرا وقهرا منه.

وقد سبق ذكر أسماء الله الحسنى وأفعاله في فصل "معرفة الله"، وهي في ذاتها تصف الله بكل كمال وتنسب إلى الله الفعل المطلق في هذا الكون. وعندما يصف قلب المؤمن ربه خالقه بهذا الكمال فقد ألهه وعبده بهذا المدح والثناء، وعندما يصف المشرك أحدا غير الله أو معه بشئ من هذه الكمالات فقد ألهه أو أشرك مع الله إلها آخر.

الثاني- الإله: المعبود قدرا من جميع مخلوقاته وهو الله:

جاء هذا المعنى في مثل قوله تعالى: {**وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله**} الزخرف84، أي يعبده من في السماء قدرا، وعلى من في الأرض عبادته شرعا. وقوله تعالى: {**لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا**} الأنبياء22، أي كل من في السموات والأرض يعبد الله قدرا، أي يسير على مراد الله؛ لذلك انصلح حال الكون، وعلى الإنسان أن يعبده اختيارا إذا أراد انصلاح حاله وإلا شقي وتعس.

والقرآن نفسه يشرح ذلك، فيقول تعالى: {**ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون**} النحل49، ويقول تعالى: {**ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته،**

ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء} الرعد13. ويقول تعالى: **(وله من في السموات والأرض، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون * يسبحون الليل والنهار لايفترون * أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يُنشِرون * لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون)** الأنبياء19-22. ويقول تعالى: **(ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات، كل قد علم صلاته وتسبيحه، والله عليم بما يفعلون)** النور41. وقال تعالى: **{ولقد آتينا داود فضلا، يا جبال أَوِّبِي معه والطير، وألنا له الحديد}** سبأ34.

والإيمان بالله إلها على هذا المعنى يعني الإيمان بأن كل هذا الكون متوجه إلى الله بأفعاله، يعبده وحده لا شريك له قدرا. فكل ماخلا الله عبيد مقهورون لله الواحد الأحد، فليس هناك من المخلوقين، حجرا أو شجرا أو بشرا، ملكا أو نبيا أو صالحا أو حاكما، يمكنه أن يخرج عن مقام العبودية لله.

وقد أشرك أناس مع الله آلهة أخرى بهذا المعنى، فقالوا بإله للخير تسير أمور الخير بقدره، فيتوجهون هم إليه طلبا للخير، وإله للشر تجري أمور الشر بقدره، فيستعيذون هم به من الشر. وعلى زعمهم فقد اختص الله نفسه بصفة الخير، ووهب إبليس صفة الشر، وعلى هذا استعاذوا بإبليس من شره فعبدوه بذلك مع الله. وعلى هذا الطريق سار الكثير من الضالين، ويبدو أن الفلاسفة لم يتركوا بابا لتبرير الشرك إلا وطرقوه، فهذا إله للنور وذاك إله للظلمة، وهذا إله للحب يلتمسون منه الحب وذاك إله للحرية وغير ذلك كثير في القديم والحديث. وهذا باب واسع للخرافات والأساطير والخزعبلات التي تسيطر على عقول الناس، وحتى على عقول من صعدوا القمر وصنعوا القنابل النووية.

ومن ثمرة الإيمان بالله وحده إلها بهذا المعنى هو أن نتوجه نحن المؤمنين إلى الله بالرضى والتسليم لقدره وقضائه الذي ليس لنا فيه اختيار، لأننا نؤمن أن كل شيء، خيرا كان أو شرا، قد حدث كما يريده الله، وأن الله لا يحب إلا الخير للمؤمنين حقا، فما نراه شرا هو الخير بميزان الله، ولكن للمؤمنين فقط، أي أن الله لا يكتب للمؤمنين إلا الخير.

<u>الثالث – الإله: المعبود بالدعاء والاستغاثة</u>

أركان العبادة أربعة: المحبة والذل والخوف والرجاء. فإذا صرفت هذه المشاعر معاً نحو الله فهو الإله الحق أو المعبود الحق، وإذا صرفت معاً نحو غيره فهو الإله الباطل .

1- الإله هو الذي يُدعى، قال تعالى:**{فما أغنت عنهم <u>آلهتهم</u> التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك، وما زادوهم غير تتبيب}** هود101. فالمشركون كانوا وما زالوا يدعون آلهتهم من دون

الله ويستغيثون بهم عند الشدائد معتقدين فيهم النفع والضر، والعطاء والمنع، قال تعالى: **(واتخذوا من دون الله آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا)** الفرقان 3 .

2- وإن كان هؤلاء المشركون يتخذون أصناما آلهة، إلا أن هذه الأصنام ترمز لأناس صالحين قد ماتوا، فاتخذوهم وسطاء وشفعاء بينهم وبين الله يدعونهم ويستغيثون بهم، لعلها تقربهم من الله زلفى. وهذا هو معنى اتخاذهم الأصنام آلهة، قال تعالى: {**والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون، أموات غير أحياء، وما يشعرون أيان يبعثون، إلهكم إله واحد**} النحل.20

3- وكانوا يظنون أن دعاءهم لآلهتهم ينفع من حيث أنهم يملكون الشفاعة (حال موتهم) لهم عند الله، قال تعالى: {**ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله**} يونس.18

4- وكانوا في شعائرهم أو طقوسهم التي يقدمونها لهذه الأصنام لا يقصدون بها إلا القرب من الله، قال تعالى: { **والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون**} الزمر.3

5- والمشركون كانوا يتقربون إلى آلهتهم بالقرابين والطقوس المختلفة، يطلبون بذلك النصر والعز والمنعة، قال تعالى: {**ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون، فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة، بل ضلوا عنهم، وذلك إفكهم وما كانوا يفترون**} الأحقاف27، وقال تعالى {**واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون**} يس74، وقال تعالى {**واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا**} مريم81. وقد صح أن الصحابة رضي الله عنهم مروا بشجرة سدر قبل غزوة حنين، كان المشركون يعظمونها وينوطون بها أسلحتهم التماسا للنصر، فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال لهم رسول الله: الله أكبر، هذا كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، ثم قال: إنكم قوم تجهلون، لتركبن سنن من كان قبلكم.

6- والمشركون كانوا يقدمون لآلهتهم القرابين خوفا منهم أن تنزل بهم النوائب كالمرض أو القحط أو النقص في الأنفس والأموال أو غير ذلك، قال تعالى: {**وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين، إنما هو إله واحد فإياي فارهبون**} النحل51، وقال تعالى: {**ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا**} الأنعام80، وقال تعالى: {**إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء**} هود.54

7- والأصنام التي كانت على عهد نوح، وهي ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا، ما هي إلا أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح، فلما ماتوا كانوا لهم أتباعا يقتدون بهم ويأخذون مأخذهم في العبادة، فجاءهم إبليس وقال لهم: لو صورتم صورهم كان أنشط لكم وأشوق إلى العبادة، ففعلوا ثم نشأ قوم بعدهم، فقال لهم إبليس: إن الذين كانوا قبلكم كانوا يعبدونهم فعبدوهم.

الرابع – الإله: المعبود بالتحاكم إلى شرعه، أو المتبع أمره في التحليل والتحريم.

ليس كل مطاع إله، ولكنه المطاع في التشريع فقط. ورسول الله ص مطاع طاعة اتباع وليست طاعة عبادة لأنه ليس مشرعا من نفسه وإنما هو مبلغ لشرع ربه كما ذكرنا من قبل. ولذلك كانت طاعة أو اتباع رسول الله هي في حقيقتها طاعة أو عبادة لله. فعبادة الله هي طاعته بالذل والحب والخوف والرجاء، ورسوله يطاع عبادةً لله.

1- قال تعالى: {**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا، لا إله إلا هو**} التوبة31، أي أن اليهود والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا مشرعين كما ذكرنا من قبل، وكذلك اتخذوهم آلهة لأنهم اعتقدوا بأحقيتهم في الاتباع فاستسلموا لتشريعهم عن رضى وإيمان بأن اتباعهم هو الخير لهم.

في الحديث عن عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه، وكان نصرانيا، أنه دخل على رسول الله ص وهو يقرأ هذه الآية، قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم، فقال: بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم.

2- وقال تعالى: {**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه، وأضله الله على علم، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة، فمن يهديه من بعد الله، أفلا تذكرون**} الجاثية23. أي أرأيت يا رسول الله من خالفك وجعل هواه شرعا ومنهاجا فهو يسير عليه ويأتمر بأمره وينتهي عن نهيه ويتبعه ولا يخالفه. وهذا فرعون يقول لقومه {**ما علمت لكم من إله غيري**} القصص38، ولأن فرعون حاكم مشرع فهو لا يقصد إلا أن يقول: أنا وحدي المطاع أمره كتشريع في أمور السياسة والاقتصاد والاجتماع وغير ذلك.

وهو نفسه يعبد آلهة الفراعنة المعروفة في التاريخ والتي تقربه إلى الله زلفى، فهؤلاء قومه يلحون عليه أن يستأصل دعوة موسى بقولهم له {**أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك**} الأعراف127 أي آلهتك التي تعبدها. بل من المعروف أن الفراعنة كانوا يتصورون شيئا عن البعث بعد الموت ولذلك عرفوا تحنيط الموتى ووضعوا معهم الطعام في قبورهم.

الإله: المعنى الشامل

إذا لم تكن هناك قرينة في الآية تخصص معنى الإله فالمراد كل المعاني السابقة. أي نقدسه ونعظمه ونعبده ونتحاكم لشرعه وحده اختيارا منا، تماما كما تقدسه وتعظمه وتعبده وتخضع لحكمه كل المخلوقات طوعا وكرها، قال تعالى: (**ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين**) فصلت11.

إن معظم كلمات "الإله" التي جاءت في القرآن يراد بها هذا المعنى الشامل. قال تعالى {**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**} الأنبياء25.

وكلمة لا إله إلا الله جاءت بالأسلوب الخبري لتفيد الخبري والإنشائي معا، فهي أخبرت أن الله وحده هو المعبود قدرا من جميع مخلوقاته كما ذكرنا من قبل، وحينئذ تكون "لا" نافية، وأنشأت عبادته وحده سبحانه من الجن والإنس اختيارا، كما في قوله تعالى {**ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون**} النحل2، وحينئذ تكون "لا" ناهية، أي لا تتخذوا إلهاً تقدسونه وتعبدونه إلا الله، ومعلوم أن نفي الإسم أبلغ من نفي الفعل، فعندما تقول "لا إله إلا الله" فكأنك أدركت وحددت أولا أن حولك آلهة باطلة تعبد، ثم أعلنت البراءة منها فقلت: "لا" للآلهة الباطلة، ثم آمنت بالله فقلت: نعم لله وحده إلها أعبده. وهذا يعني أن الآلهة الباطلة موجودة في كل زمان. فينبغي على المسلم أن يحدد هذه الآلهة الباطلة في زمانه كي يكون لشهادته بأن "لا إله إلا الله" معنى في عقله وقلبه، وثمرة في حياته. ولهذا فإن إسلام المسلم ينقض عروة عروة إذا كان لا يعرف الجاهلية.

التوحيد:

التوحيد هو جعل الشيء واحدا، وهو لا يتحقق إلا بأسلوب الحصر والقصر في اللغة. ومن وسائل هذا الأسلوب النفي والإثبات. فتوحيد الله في ألوهيته يعني نفي الألوهية عن غيره سبحانه ثم إثباتها له وحده، فتقول لا إله (نفي) إلا الله (إثبات). والنفي هنا يعني البراءة والإثبات يعني الإيمان، كأنك تقول لا للآلهة الباطلة أو لا للطواغيت ونعم لله وحده إلها معبودا مطاعا في شرعه. ويدل على ذلك قول الله تعالى {**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**} الأنبياء25 الذي يفسره قوله تعالى {**ولقد أرسلنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**} النحل36، فقوله تعالى: {اجتنبوا الطاغوت} تساوي لا إله، وقوله تعالى: {اعبدوا الله} تساوي إلا الله.

أما توحيد الربوبية فهو البراءة من ربوبية غير الله والإيمان بربوبية الله وحده. والربوبية هي أفعال الرب، وتوحيد الله في ربوبيته هو توحيده سبحانه في كل أفعاله. وليس للبشرية مشكلة في أن الله هو وحده الرب الخالق من العدم للكون ومن فيه كما ذكرنا من قبل، ولكن المشكلة هي في الإيمان بالله وحده: ربا مجيبا للدعاء وكاشفا للكروب دون واسطة بينه وبين عباده فلا يؤله بالدعاء إلا هو، وربا مربيا بأوامره الشرعية، فلا يؤله بالطاعة إلا هو باتباع شرعه وحده .

مقارنة بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية

توحيد الربوبية	توحيد الألوهية
هو توحيد الله بأفعال الله، فهو وحده النافع الضار المعطي المانع، وهو وحده مجيب الدعوات وكاشف الكربات، وهو وحده المشرع الحق لمنهج الحياة وشعائر الدين.	هو توحيد الله بأفعال مخلوقاته، فالكل يسبحه ويمجده ويصفه بالكمال والجلال، ويسير على مراده. وعلى الإنس والجن أن يعظموه ويعبدوه وحده بشعائرهم وتحاكمهم لشرعه ومنهجه.
يقال له أيضا التوحيد العلمي أو الخبري أو توحيد المعرفة أو التوحيد الاعتقادي.	يقال له أيضا توحيد العبادة أو توحيد الإرادة والقصد أو التوحيد العملي.
ليس هو الغاية النهائية من إرسال الرسل، فلا يكفي لدخول الإسلام. لكنه الباب لتوحيد الألوهية أو يقتضيه. كما أنه يتضمن توحيد الأسماء والصفات.	هو الغاية من إرسال الرسل لأنه يتضمن توحيد الربوبية وتوحيد الصفات. فمن آمن بالله وحده إله يعبده تضمن ذلك ايمانه بالله ربا.
العلم به يزيد الإيمان بعظمة الرب، ويؤنس الروح ويطمئن النفس.	العلم به يزيد الصلة بالله، ويزيد الالتزام والاستقامة على منهج الله.
ضده: اعتقاد وسطاء يملكون الشفاعة في النفع والضر عند الله، واعتقاد أحقية غيره أو معه بالتشريع.	ضده: التوجه لغيره أو معه بالدعاء والاستغاثة، والتوجه لغير شرعه بالتحاكم طوعا طلبا للعدل.
ليس فيه عذر بالجهل لأن الشرك فيه لا يكون إلا جليا في الاعتقاد.	فيه عذر بالجهل لأن الشرك فيه قد يكون خفيا في العمل.
كل الناس يقرون لله بالخلق والتدبير. وكل الكفار يعتقدون وسطاء بين الله وعبيده في النفع والضر والتشريع. وقليل من أمة الإسلام من يشرك في الربوبية.	معظم الناس يعتقدون أن المخلوقات تسير كما يريد الله، وكل الكفار يشركون بآلهة يعبدونها مع الله في الدعاء والتحاكم، وكثير من المسلمين واقعون في مظاهر شرك الألوهية.

الطاغوت

من المناسب هنا أن نذكر ماجاء في القرآن عن معنى الطاغوت، وذلك لأن الطاغوت هو الإله الباطل الذي يعبد مع الله أو من دونه، أو هو الرب الباطل الذي يعتقد في نفعه وضره أو في أحقيته في التشريع. وهذه الكلمة تأتي في القرآن لتعبر عن أنواع عدة من الطواغيت .

1- تأتي كلمة الطاغوت في القرآن لتعبر عن الكهان والعرافين والسحرة ومن يدعون علم الغيب في قوله تعالى: {**ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا**} النساء51 .

2- وتأتي كلمة الطاغوت لتعبر عن كل من يدعي بأحقية التشريع لنفسه أو تدّعى له سواء من الحكام أو الكهان، وكذلك تعبر عن نفس القانون والمنهج الذي يخالف شرع ومنهج الله، قال تعالى: {**ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا**} النساء60.

إن الطاغوت هو الذي يطغى فيزيد عن حد بشريته بأن يتربب على الناس فيدعي حق التشريع لهم أو يدعي الوساطة بينهم وبين الله في التشريع، أو يتأله عليهم فيسوقهم على طاعته في تشريعه أو تشريع غير الله. فهذا فرعون الطاغوت يقول: **أنا ربكم الأعلى**، أي أنا مشرعكم الأعلى من قبل الله، ويقول أيضا: **ما علمت لكم من إله غيري**، أي لا أحد حقيق بالاتباع والطاعة في التشريع غيري.

وهنا يجب أن ننبه على أنه ليس كل ظالم طاغوت، ففي تاريخ المسلمين حكام ظلموا أو وقعوا في الظلم ولكن مصدر التشريعات التي اتبعوها كانت القرآن والسنة، والظلم نتج من سلبيات في التطبيق بسبب الأهواء. وهذا ما جعل ابن عباس يقول: ظلم دون ظلم وكفر دون كفر وفسق دون فسق. وإذا اشتد ظلم الحاكم المسلم، القائمة دولته على أساس الدين، فإنه يكون طاغية ولا يكون طاغوتا لأن كلمة الطاغوت أطلقت في القرآن على من يقيم دولته على دين غير دين الله أو على تشريع غير تشريع القرآن والسنة. ويمكن أن نقول أن كل طاغوت ظالم وليس كل ظالم طاغوت، فإن كان الطاغوت هو شخص الحاكم فإنه لابد أن يظلم لكي يفرض شرع هواه، وإن كان الطاغوت هو القانون نفسه فإن القانون نفسه يؤدي إلى الظلم ومن يحكم به هو الظالم، وفي الحالتين فإن الظلم واقع على الناس، فإن وافق الناس ورضوا واتبعوا أو كانوا هم أنفسهم واضعي هذا التشريع من خلال ما يسمونها الديمقراطية فهم ظالمي أنفسهم كما قال ربنا تبارك وتعالى: {**احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم**} الصافات22، فالذين ظلموا في هذه الآية هم المستضعفون، وما يعبدون هم الطواغيت المشرعون.

كما نحب أن ننبه أيضا على كلمة "**يريدون**" في قوله تعالى {**يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت...**}، فهي تعني هنا "يحبون"، فيخرج من هذا سواد المسلمين المقهورين تحت شرع ومنهج الطاغوت حتى وإن اضطر أحدهم إلى أخذ حقه من خلال قانون الطاغوت لأن هؤلاء لا يريدون .. بل هم فيهم من منهج الله بقية و يحاولون أو يجاهدون لتحكيم الباقي باستثناء القلة من العلمانيين المدعومين من

الطاغوت الأكبر، والحوادث تدل على أن مجموع الأمة لم ترض بغير شرع الله على مدار السنين. ويخرج من هذا أيضا الأقليات الإسلامية التي تعيش في بلاد الكفر، ويحاولون أو يجاهدون للحفاظ على شخصيتهم الإسلامية في هذه البلاد. ويدل على ذلك أيضا فعل رسول الله ص الذي أرسل بعض الصحابة مهاجرين إلى الحبشة في الهجرة الأولى حيث كان الحفاظ على شخصيتهم الإسلامية ممكنا.

3- وتأتي كلمة الطاغوت في القرآن لتعبر عن دول الكفر عندما تُغِير ثقافيا على أمة الإسلام تريد أن تخرجها من نور منهج الإسلام وشريعته إلى ظلمة منهج الكفر وقانونه. وهذا هو الطاغوت الأكبر لأنه متمثل في دولة كاملة. واسمع إلى قول الله تعالى: {**الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**} البقرة257. إن الظلمات هي مناهج الكفار والنور هو منهج الله ودينه. والإخراج من النور إلى الظلمات هو الغزو الثقافي والاقتصادي للمسلمين من الكفار. وعلى العلمانيين الذين يروجون لمذاهب كفار الغرب من بني جلدتنا أن يحذروا من هذه الآية لأنهم المقصودون بقوله تعالى: {**والذين كفروا**}، وقوله تعالى: {**أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**}.

4- وتأتي لتعبر عن كل إله باطل كما في قوله تعالى: {**فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم**} البقرة256، فالعروة الوثقى هي كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، والكفر بالطاغوت والإيمان بالله تفسير لها. فالطاغوت هو الإله الباطل، وقد علمت المعنى الشامل لكلمة الإله من قبل.

كما جاءت بهذا المعنى أيضا في قوله تعالى: {**ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين**} النحل36. وفي قوله تعالى: {**والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد * الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب**} الزمر16.

وقال تعالى { **قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل**} المائدة60

5- كل دين غير الإسلام طاغوت يطغى على عقول الناس وقلوبها يعبدهم لغير الله، ويخدرهم عن التوجه لله وشرعه، قال تعالى: {**الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل**

<u>**الطاغوت**</u> **فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا}** النساء76، الآية تقرر أن الذين آمنوا يقاتلون في سبيل إعلاء دين الله في الأرض، والذين كفروا يقاتلون لإعلاء دين الطاغوت أو تشريع الطاغوت في الأرض. وهي تدل على أن القتال في سبيل إعلاء أي مناهج وتشريعات أرضية –مثل العلمانية – في الأرض أو في الوطن هو في الحقيقة قتال في سبيل الطاغوت ولا يفعل ذلك إلا الكفار. وقد يكون المسلم جاهلا بهذه الرايات أو مضطرا للقتال تحتها دفاعا عن وطنه ضد الكفر والكافرين، فإذا مات حينئذ فإنه يحشر على نيته كما أخبر بذلك رسول الله ص في الحديث المتفق عليه **{عن عائشة** ر **قالت: قال رسول الله** ص: **يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم، قالت قلت: يا رسول الله كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟ قال: يخسف بأولهم وآخرهم ثم** <u>**يبعثون على نياتهم**</u>**}** (رياض الصالحين2) .وقد يقاتل المسلم تحت راية الوطن دون شرط تحكيم دين الله كله عليه اختيارا منه إذا كان الذين يقاتَلون هم من يمثلون الطاغوت الأكبر أو قوى الكفر العالمية التي تحول دون تحكيم دين الله في هذا الوطن أصلا.

إن كان المعبود صنما فإنه طاغوت أيضا لأن الصنم لا يعبد لذاته، وإنما هناك تصورات عقائدية حول هذا الصنم، تعد أساطير تطغى على عقول وقلوب الناس. وهذه الأساطير تؤدي إلى تشريعات وطقوس تؤدى لهذا الصنم.

وهذه مناسبة أن نفرق بين الصنم والتمثال. فالصنم يعبد وتدور حوله الأساطير، والتمثال لايعبد وليس حوله أساطير، وقد يكون الصنم تمثال يعبد كما قد يكون بشرا يعبد. ولذلك عندما جاء التعبير عن الأصنام باستخدام كلمة التماثيل في القرآن أضيفت لها العبادة، كما في قوله تعالى **{ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون}** الأنبياء52، والاعتكاف من العبادة، بينما اكتفي بذكر الأصنام في قوله تعالى **{وتالله لأكيدن أصنامكم}** الأنبياء57.

وقد يتحول الصنم إلى تمثال والتمثال إلى صنم بمرور الزمن. فأصنام طواغيت الشيوعية مثل لينين وغيره قد نزعت بسقوط الشيوعية وتحولت إلى مجرد تماثيل وضعت في متحف التاريخ. وهناك محاولات فاشلة لبث الفرعونية في تماثيل الفراعنة وإخراجها من متاحف التاريخ إلى حياة الناس حاليا، ولكن هيهات. والنصب التذكارية التي يقيمونها للجندي المجهول تماثيل وليست أصناما. ونصبها محرم من الناحية الفقهية لاشك ولكنها ليست طاغوتا كما يريد القرآن من استخدام كلمة الطاغوت على الأصنام.

إن اتخاذ الأصنام مسألة عقائدية، أي صاحبها مشرك كافر. أما اتخاذ التماثيل فهي مسألة فقهية، وهو محرم، وصاحبه ارتكب كبيرة. لذلك فقد استثنى العلماء منها لعب الأطفال. ويمكن استثناء تماثيل المتاحف على هذا الفهم مادامت لا تعبد. فإن عبدت وجب كسرها.

إن رسول الله ص لم يبدأ بكسر أصنام المشركين وإنما حارب هذه التصورات والعقائد والأساطير التي حولها، فلما ضعفت هذه العقائد في نفوس الناس إلى الحد الذي جعل كسرها بدون مشاكل ممكنا كسرها الحكيم صلى الله عليه وسلم.

إن الطاغوت لابد أن يدعي الربوبية، لأن التشريع من خصائص الربوبية. والألوهية مظهر الربوبية، لذلك فإن عبادة الناس للطاغوت تنبع من إيمانهم بربوبيته أو بحقه في التشريع. فالطاغوت لا يقوم وقد استقر في اعتقاد الناس فعلا أن التشريع لا يكون إلا لله. والطاغوت قد لا يكون شخصا معينا، فالناس في الجاهلية قد يسمون من عند أنفسهم أسماء، في ظاهرها الرحمة وفي باطنها العذاب، فتشريع الناس لأنفسهم بأهوائهم قد يسمونه "الديمقراطية"، ثم يخلعون عليها صفات الربوبية، فهي التي ستمنح الناس الحياة الرغدة، وفي سرها السعادة، ويعطونها خصائص الألوهية، فهي الجديرة بالاتباع وإلا كان الضياع وهي الحتمية التاريخية وإلا كان الهلاك. وبالطبع لانقصد هنا الديمقراطية التي بمعنى الحرية والشورى .

<u>الفصل الرابع: العبادة</u>

<u>1- العبادة: التوجه بالشعائر للإله</u>

أركان العبادة كما ذكرنا من قبل هي الحب والذل والخوف والرجاء، فمن صرف هذه المشاعر إلى الله فقد عبد الله، ومن صرفها لأحد معه فقد أشرك بالله. والدعاء من أهم الوسائل المعبرة عن هذه المشاعر، لذلك فإن الدعاء مخ العبادة.

فدعاء الله عبادةٌ لله، ودعاء أي مخلوق – فيما لايقدر عليه إلا الخالق المدبر لهذا الكون – عبادة لهذا المخلوق، والمخلوق في هذه الحالة هو إله الداعي، سواء كان هذا المخلوق صنما أو قبرا أو إنسانا أو نبيا أو ملكا طالما اعتقد فيه ضرا أو نفعا.

قال تعالى { **قل إني نهيت أن <u>أعبد</u> الذين <u>تدعون</u> من دون الله لما جاءني البينات من ربي**} غافر66، فكلمة "**أعبد**" هنا تعني "**أدعو**" لأن النهي في الآية للرسول أن يدعو غير الله كما يفعل المشركون .

وقال تعالى {**وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا، فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب**} مريم48، والقرينة واضحة هنا أيضا أن "**يعبدون**" يقصد بها "**يدعون**" .

وقال تعالى {**ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين**} الأحقاف5، فالآية تعني أن من الناس من يدعو بشرا مثلهم (أولياء أو أنبياء) يتوهمون وساطتهم بينهم وبين الله، ولكن إذا حشر الناس يوم القيامة تبرأ هؤلاء الأولياء والأنبياء منهم ومن عبادتهم، بل صاروا لهم أعداء.

ويقول تعالى {**ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون، قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم، بل كانوا يعبدون الجن، أكثرهم بهم مؤمنون**} سبأ40، أي أن الملائكة يتبرءون يوم القيامة ممن كانوا يعبدونهم في الدنيا بالدعاء والاستعاذة والاستغاثة بهياكلهم وتماثيلهم الخيالية التي صوروها لهم لتقربهم إلى الله زلفى، فتقيهم الشرور وتقضي حوائجهم بزعمهم. أما المراد بعبادة الجن فهو في قوله تعالى {**وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن**} الجن6، أي أن عبادة الجن هي العياذ بهم واللجوء إليهم في الأهوال ونقص الأموال والأنفس، والإيمان بالجن هو الاعتقاد بأن لهم سلطان الوساطة عند الله.

ويقول تعالى: {**ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل، قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء**} الفرقان17، والمعبودون هنا هم الأنبياء والصالحون، وعبادتهم هي تقديم شعائر العبودية لهم مثل دعائهم والاستغاثة بهم والذبح والنذر لهم والحلف بهم وغير ذلك، مع اعتقاد أنهم أجل وأرفع من خصائص العبودية وبكونهم متصفين بصفات الربوبية فيقدرون على الإعانة الغيبية وكشف الضر والإغاثة. وهؤلاء الأنبياء والصالحين يحشرون مع من عبدوهم، فيسألهم الله: "أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء ؟ " فيردون متبرئين ممن عبدوهم فيقولون: سبحانك ! بل عبيدٌ ليس لنا أن نتخذ لأنفسنا غيرك وليّ .

والمشركون لا يعبدون آلهتهم الباطلة من فراغ، بل يعتقدون أن لهم سلطة وساطة، وملكية شفاعة عند الله، يقول تعالى: {**ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله**} يونس18، أي أنهم يقصدون التقرب من الله بعبادة الوسطاء والشفعاء، يقول تعالى {**والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**} الزمر3 .

2- العبادة: الطاعة في التشريع

لابد من تقييد الطاعة هنا بالطاعة في التشريع، عن إيمان بالمشرع أنه الهادي إلى طريق السعادة، أو بالتشريع نفسه أنه طريق السعادة؛ لأننا نتكلم عن العبادة. فليست كل طاعة عبادة.

قال تعالى{ **يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون**} البقرة172، أي إن كنتم إليه تتحاكمون فتحلون ما أحل لكم من الطيبات .

وقال تعالى: {**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا**} التوبة31، وعبادة الأحبار والرهبان هنا هي طاعتهم فيما شرعوا من دون شرع الله، وقد صرح رسول الله ص بهذا المعنى في الحديث الصحيح الذي رواه الترمذي وابن جرير عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه دخل على رسول الله وهو يقرأ هذه الآية، فقال عدي: إنهم لم يعبدوهم، فقال ص: بلى.. حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم" .

وقال تعالى: {**فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمت الله إن كنتم إياه تعبدون * إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به**} النحل114، لقد كان العرب قبل الإسلام يتقيدون بمآكل ومشارب معينة طاعة لتشريع أئمتهم الدينيين واتباعا لأوهام آبائهم الأولين، فجاء الإسلام يأمرهم بتحطيم هذه العادات الشركية بأن يأكلوا مما أحله الله ولا يطيعوا غيره في التشريع.

وقال تعالى: {**ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**} النحل36، وقال تعالى: {**والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى**} الزمر17. وكلمة الطاغوت لها عدة معانٍ، منها المشرع بغير ما أنزل الله أو نفس تشريع غير الله، بدليل قوله تعالى: {**ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا**} النساء60. وهذا يعني أن من معاني العبادة: الإيمان والاستسلام والتحاكم لهذا المشرع أو لهذا التشريع .

وقال تعالى: {**إن الحكم إلا لله، أمر ألا تعبدوا إلا إياه، ذلك الدين القيم**} يوسف40 ،

وقال تعالى: { **ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين**} يس60، أي لا تطيعوا شياطين الإنس في تشريعهم من دون الله، أما شياطين الجن فالكل يلعنها ويطردها من نفسه. أي أن الشيطان في هذه الآية وصف من الله على من يتربب على الناس بالتشريع لهم.

وقال تعالى: {**احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم**} الصافات22، والعجيب هنا أن الذين ظلموا هم المستضعفون، وما يعبدون: هم الطواغيت المشرعون لهم بغير ما أنزل الله، وهذا بقرينة "احشروا" لأن الأصنام لاتحشر، وعبادتهم هي طاعتهم في تشريعهم.

وقال تعالى: {**وتلك نعمة تمنها عليّ أن عبدت بني إسرائيل**} الشعراء22، صحيح أن "عبدت" هنا بمعنى اتخذتهم عبيدا أي رقيقا، وكنها توحي أيضا وفي هذا السياق أن فرعون أيضا عوّد وعبّد بني إسرائيل على شرعه ومنهجه ولم يتركهم يتحاكموا لشريعتهم، فلم يكتفي باتخاذهم رقيقا. ويبدو أن بني إسرائيل قبلوا هذه العبودية ورضوا بها بمرور الزمن، فقد أتت كلمة عابدون لتعبر عن ذلك في حقهم، قال تعالى: {**ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين، إلى فرعون وملإه فاستكبروا وكانوا قوما عالين، فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون**} المؤمنون45، أي طائعون منقادون لمنهجنا وأمرنا، موالون لنا. وهذا يدل على أن بني إسرائيل قد بدءوا يذوبون في المجتمع الفرعوني وأن الفساد قد دخل في عقيدتهم .

طاعة الرسول من طاعة الله:

الطاعة تكون لله مطلقة وتكون للرسول مطلقة، قال تعالى: {**ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم**} النساء69، وتكون مقيدة لأولي الأمر بالرد لله ورسوله عند التنازع وبعدم معصيتهما، كما قال تعالى: {**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله ورسوله**} النساء59 أي إلى القرآن والسنة. ولكن نوعية الطاعات الثلاثة مختلفة. فطاعة الله طاعة عبادة، بالحب والذل والخوف والرجاء، أي رجاء ثوابه وخوفا من عقابه. وطاعة رسوله طاعة اتباع بالحب، وهي في حقيقتها طاعة أو عبادة لله كما قال تعالى: {**من يطع الرسول فقد أطاع الله**} النساء80. وطاعة أولي الأمر في تشريع الله طاعة لله، وطاعتهم فيما لا ينافي شرع الله طاعة نظام وجماعة. أما طاعتهم والانقياد لهم فيما يضاد شرع الله فهي عبادة لهم.

قال تعالى: (**قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم، وإن تطيعوه تهتدوا، وما على الرسول إلا البلاغ المبين**) النور54 .

وقال تعالى: (**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم**) آل عمران31 .

وقال تعالى: (**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما**) النساء65 .

وقال تعالى: (**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر**) الأحزاب21 .

وقال تعالى: (**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**) الحشر7 .

وعن أبي هريرة ر إن النبي ص قال: (دعوني ما تركتكم: إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ! فإذا نهيتكم عن سئ فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم) متفق عليه .

وعن أبي هريرة ر أن رسول الله ص قال: (كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى) قيل: ومن يأبى يارسول الله ؟ قال: (من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى) رواه البخاري .

3- العبادة: المعنى الشامل

الأمثلة السابقة تبين عبادة غير الله، فإما أن يكونوا شياطين الإنس الطواغيت من الأئمة والزعماء والأحبار والرهبان الذين يشرعون للناس من دون الله ويتألهون عليهم فيحملونهم على طاعتهم في قوانينهم هذه، وإما أن يكونوا الأولياء والأنبياء والصالحين الذين اتخذهم الناس آلهة لهم فصنعوا لهم التماثيل، وإما أن يكونوا الملائكة والجن أو تماثيلهم الخيالية وهياكلها. وعبادة كل هذه الآلهة باطل وشرك بالله في ألوهيته.

وقد أمر الله الإنس والجن أن يعبدوه وحده ويكفروا بعبادة غيره. قال تعالى في الأمر بعبادته بمعنى طاعته في تشريعه: {**إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه**} يوسف40، أي إنِ التشريع إلا لله، أمر أن لا تطيعوا إلا شرعه. وغير ذلك من الآيات كثير. وقال تعالى في الأمر بعبادته بمعنى التنسك له بشعائر العبادة: {**وقال ربكم ادعوني أستجب لكم، إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**} غافر60، وقال تعالى: {**ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون**} فصلت 37 .

كذلك يأتي الأمر بعبادة الله وحده في آيات كثيرة ولكن دون قرينة تخصص نوع العبادة، وهنا يكون المقصود هو العبادة بمعناها الشامل لكل أنواع العبادة. وهذه الآيات تبين ذلك:

قال تعالى: {**إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني**} طه14، وقال تعالى: {**ذلكم الله ربكم، لا إله إلا هو، خالق كل شيء فاعبدوه، وهو على كل شيء وكيل**} الأنعام102، وقال تعالى: {**قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم، وأمرت أن أكون من المؤمنين**} يونس104، وقال تعالى {**ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه**} هود123، وقال تعالى { **له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك، وما كان ربك نسيا * رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته**} مريم64، وقال تعالى {**فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا**} آخرالكهف.

إن حصر معاني كلمة العبادة في معنى بعينه هو حصر لدعوة القرآن في معانٍ ضيقة. ومن نتائجه المحتومة هو الاتباع الناقص لتعاليمه.

الفصل الخامس: الدين

1- الدين: الحساب والجزاء أو يوم الحساب والجزاء

قال تعالى: {**إنما توعدون لصادق، وإن الدين لواقع**} الذاريات5، أي الحساب والجزاء واقع، أو يوم ذلك آت.

وقال تعالى: {**وما أدراك ما يوم الدين، ثم ما أدراك ما يوم الدين، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله**} الإنفطار17، فيوم الدين هو يوم الحساب.

2- الدين: الخضوع والاستسلام والعبادة والطاعة للإله

قال تعالى: {**هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين**} غافر65، أي مخلصين له العبادة والطاعة والتدين.

وقال تعالى: {**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء**} البينة5،

وقال تعالى: {**قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين، وأمرت لأن أكون أول المسلمين**} الزمر11.

وقال تعالى: {**أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون**} آل عمران83، أي أغير الخضوع والذل والاستسلام والتدين لله يبغون وقد خضع واستسلم له كل ما في السموات والأرض.

وقال تعالى {**لكم دينكم ولي دين**} الكافرون6، أي لكم عبادتكم لأصنامكم ولي عبادتي لله وحده .

3- الدين: المنهج والشرع والحدود والقوانين التي تتبع:

قال تعالى: {**إن الحكم إلا لله، أمر ألا تعبدوا إلا إياه، ذلك الدين القيم**} يوسف40، أي ذلك المنهج والتشريع القيم.

وقال تعالى: {**فأقم وجهك للدين حنيفا، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**} الروم30.

وقال تعالى: {**الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله**} النور2.

وقال تعالى: {**إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم، ذلك الدين القيم**} التوبة36.

وقال تعالى: {**كذلك كدنا ليوسف، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك**} يوسف76.

وقال تعالى: {**وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم**} الأنعام137.

وقال تعالى: {**أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله**} الشورى.21

4- الدين: المعنى الشامل

قد تأتي كلمة الدين بدون قرائن فيراد بها كل المعاني.

قال تعالى: {**إن الدين عند الله الإسلام**} آل عمران19، أي أن العقيدة والشعيرة والشريعة عند الله هي الإسلام .

وقال تعالى {**ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه**} آل عمران85، أي أن من يبتغ غير الإسلام عقيدة وشعيرة وشريعة فلن يقبل منه .

وقال تعالى: { **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون**} التوبة29. والدين الحق كما هو واضح من الآية هو الإيمان بالله وحده ربا وإلها، والإيمان باليوم الآخر، وتحريم ما حرم الله ورسوله وهي الشريعة .

وقال تعالى: {**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**} التوبة33. هذه بشرى، فالأصل هو ظهور الإسلام عقيدة وشعيرة وشريعة على كل العقائد والشعائر والشرائع. والظهور هنا هو سيادة وهيمنة الدين الحق وليس المقصود إلغاء عقائد وشعائر الآخرين، والسيادة والهيمنة تعني حرية الدعوة وحرية جدال الآخرين وحرية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقال تعالى: {**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله**} الأنفال39. هذه دعوة للقتال عندما تتوفر شروطه وعدته حتى يظهر الإسلام وتقضى على أي قوة أخرى مادية أو معنوية تفتن الناس عن الدخول في الإسلام، وبعبارة أخرى تضمن الحرية لكل من يريد الدخول في هذا الدين الحق بدون أن يفتن من أي قوة أخرى .

وقال تعالى: {**وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه، إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد**} غافر26، أي أن فرعون خاف أن يبدل موسى عقيدة وشريعة وعادات المصريين .

وقال تعالى: {**إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا، فسبح بحمد ربك واستغفره، إنه كان توابا**} سورة النصر.

إن الدين هو كل ما أوحى الله إلى رسوله، عقيدة وشعيرة وشريعة وأخلاقا ومعاملات. والحقيقة أن الشريعة كانت تطلق على الدين كله قبل هذه التقسيمات، فكان تطبيق الشريعة يعني تطبيق الدين كله .

والفقه كعلم كان موضوعه الدين كله، ومن ثم أطلقوا على العقيدة: "الفقه الأكبر" وسمي بذلك ما كتبه الإمام أبو حنيفة من العقيدة. ولكن فيما بعد أطلق الفقه على جانب الأحكام في الدين، فخرج بذلك الكلام في العقيدة والأخلاق من كتب الفقة .

فترتب على ذلك إطلاق الشريعة وهي عامة على جانب الأحكام، بل تعدى ذلك إلى إطلاق الشريعة على جانب الحدود، فترتب على ذلك التباس المعنى، ومن ثم وجبت المشاحة في الاصطلاح، وأصبح

تطبيق الشريعة هو تطبيق الحدود، وأصبحت دائرة العقيدة والأخلاق والمعاملات الإقتصادية والسياسية خارج المطالبة بالتطبيق .

الفصل السادس: الجاهلية

الجهل في اللغة هو عدم العلم، أو عدم المعرفة، أو هو خلوّ النفس من العلم. وهذا المعنى هو الأصل، وهو جهل بسيط غير مذموم، ويأتي قليلا في القرآن، قال تعالى: (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) البقرة 273، أي: من لا يعرف حالهم.

أما في اصطلاح القرآن، أو ما يأتي كثيرا في القرآن، فهو على معنيين مذمومين:

الأول: اعتقاد الشئ بخلاف ما هو عليه، أو عدم العلم بالصواب مع الاعتقاد في الخطأ، وهو يتمثل في الجهل بحقيقة الألوهية مع اعتقاد ما يخالفها، **والثاني:** فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل، سواء اعتقد فيه اعتقادا صحيحا أو فاسدا، وهو يتمثل في ترك ما أنزل الله واتباع غير ما أنزله، كمن يترك الصلاة متعمدا .

المعنى الأول: الجهل بحقيقة الألوهية مع اعتقاد ما يخالفها

قال تعالى: **(وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة. قال إنكم قوم تجهلون)** الأعراف 138. فالجهل هنا هو عدم العلم بحقيقة الألوهية مع اعتقاد ما يخالفها. إذ لو علموا أنه تعالى لا تدركه الأبصار وأنه ليس كمثله شئ في ذاته أو في صفاته ما سألوا هذا السؤال. ولو كان جهلهم بسيطا لعلمهم موسى ولم يصفهم بهذا الوصف .

وقال تعالى: **(وطائفة قد أهمتهم أنفسهم، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، يقولون هل لنا من الأمر من شئ، قل إن الأمر كله لله، يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك، يقولون لو كان لنا من الأمر شئ ما قتلنا هاهنا)** آل عمران 154. هذه الطائفة هم المنافقون، وكان ذلك في غزوة أحد، وقد استشار النبي ص هل يخرجون للقاء العدو أم يتترسوا بالمدينة، فأشار الشباب بالخروج وأشار المنافقون بالقعود. وخرج الرسول ص وجاء نصر الله في بداية المعركة، فلما خالف الرماة أو معظمهم أمر رسول الله سلبهم النصر، واختبرهم بالهزيمة ليعلّمهم أهمية تنفيذ أوامر القيادة العسكرية. ثم عفا عنهم وأنزل عليهم النعاس، فغشي طائفة المؤمنين المخلصين منهم وبقيت طائفة المنافقين على خوفهم وفزعهم من توعد المشركين بالرجوع إلى القتال. يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية فيتصورون أن هناك من يمكن أن

يشاركه سبحانه في تدبير الأمر، يقولون ليس لنا من الأمر شئ ولو كان الأمر بيدنا ما قتلنا ها هنا لأننا قد أشرنا بعدم الخروج من قبل .

الثاني: عدم اتباع ما أنزل الله

قال تعالى: **(وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين)** يوسف 33. الجهل هنا مخالفة أمر الله والوقوع فيما حرم الله، وهو الأمر الذي يخشى يوسف عليه السلام أن يقع فيه، ويستعيذ بالله منه .

وقال تعالى: **(ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى)** الأحزاب 33. الجاهلية هنا هي اتباع غير ما أنزل الله من وجوب ستر المرأة جسمها كله ما عدا وجهها وكفيها .

وقال تعالى: **(إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية)** الفتح 26. فالجاهلية هنا هي القتال في غير سبيل الله أو هي القتال حميةً وعصبيةً .

وقال تعالى: **(أفحكم الجاهلية يبغون، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون)** المائدة 50. والجاهلية هنا هي اتباع غير ما أنزل الله من التشريع .

المعنى الشامل

الجاهلية الشاملة في معناها هي الجهل بحقيقة الألوهية والاعتقاد بغير هذه الحقيقة، وكذلك عدم تنفيذ أوامر الله. وهي بهذا المعنى ليست محددة بزمان معين ولا مكان معين ولا قوم معينين. إنما هي تصورات معينة، وسلوك معين، حيثما وجدت فهي الجاهلية، بصرف النظر عن الزمان والمكان والقوم. لذلك فهي موجودة في هذا الزمان بشكل مطلق في بلاد غير المسلمين وبشكل نسبي في بلاد المسلمين. أما الجاهلية العامة التي تشمل كل الأرض والتي تتطلب عقاب الله بالسنن فقد انتفت بعد بعثة النبي محمد ص لأنه لا تزال طائفة من أمته ظاهرين على الحق .

والجاهلية في المصطلح القرآني ليست مقابلا للقوة المادية ولا للعمارة المادية للأرض ولا للعلم بظاهر الحياة الدنيا، لأن الله قد وصف جاهليات كثيرة في التاريخ بالقوة والعلم وعمارة الأرض، فال تعالى: **(أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من فبلهم كانوا أشد قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها، وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)** الروم 9 .

وأهل الجاهلية لا يخلون من الخير تماما، ولكنه خير لا قيمة له بسبب شركهم، قال ص: **(خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا)** رواه مسلم، وإذا فقهوا: أي إذا فقهت قلوبهم فآمنوا .

الخلاصة

خلاصة موضوع دعوة القرآن الكريم

1- الإيمان بوجود الله على المعنى الثاني، أي الإيمان بحضور الله وتدبيره وقيومته لكل أمر في هذا الكون، حتى أن الورقة من الشجرة لاتسقط إلا بعلمه وأمره. وعموما هو الإيمان بأن الله هو الفاعل الحقيقي في هذا الكون.

2- الإيمان بأن الله وحده له كل صفات الكمال وأنه سبحانه منزه عن كل صفات النقص، وبأنه سبحانه أحد متفرد في ذاته وفي أسمائه وصفاته ليس كمثله شيء، فليس جسدا يصور في أصنام وليس روحا تحل في طواغيت.

3- الإيمان بالله وحده ربا يدبر أمر الكون، وربا ينفع ويضر، وربا يحفظ ويرعى عباده المؤمنين، وربا يجيب دعاءهم ويكشف كروبهم، وربا يشرع للناس منهاج حياتهم لدنياهم وآخرتهم.

4- الإيمان بالله وحده إلها له كل التقديس والتعظيم، وإلها له كل العبادة والدعاء، وإلها له كل التحاكم في التشريع.

طريقه القرآن في دعوة الناس هي كالآتي:

1) كما أنكم تقرون بوجود الله فلابد أن تتيقنوا بأن الله هو الفاعل الحقيقي في هذا الكون، فهو المدبر لأمر كل شئ، هو الخافض والرافع وهو الباسط والقابض، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ... إلخ .

2) حيث أنكم تقرون بوجود الله ولا تعرفونه حق المعرفة؛ بسبب تشويه فطرتكم وبعدكم عما جاءتكم به الرسل، فها هي الرسالة الخاتمة تعرفكم بالله خالقكم معرفة تشفي صدوركم وتعلوا بأرواحكم في مدارج الكمال المقدر لكم. وينبغي وأنتم تتعرفون على خالقكم أن تعلموا أنه سبحانه أحدٌ متفرد في ذاته وأسمائه وصفاته ليس كمثله شيء من مخلوقاته. وليس في حاجة إلى أن يوسط بعض مخلوقاته بينكم وبينه فيحل فيها ليبلغكم مراده منكم، فإنه يفعل ذلك عن طريق إرسال رسله.

3) وكما أنكم تقرون بوجود الله وبأنه خالقكم وخالق الكون من حولكم فعليكم أن تؤمنوا به وحده ربا يربيكم بإجابة الدعاء وكشف الكروب مباشرة وبدون واسطة بينكم وبينه، وكذلك عليكم أن تؤمنوا به ربا يربيكم بشرعه ودينه ومنهجه لحياتكم. ولابد لذلك من أن تكفروا بغيره من الأرباب الباطلة التي تنسبون إليها الحفظ والرعاية والضر والنفع وإجابة الدعاء وكشف الكروب، بحجة أنها واسطة بينكم وبين الله، وأن تكفروا بغيره من الأرباب والطواغيت التي تشرع لكم البدع لشعائركم والمناهج الفاسدة لحياتكم. فلا يكفي عموما أن تقروا بأن الله هو الفاعل قدراً، بل لابد أن تؤمنوا أيضا أن الله هو وحده الفاعل شرعاً بإجابة الدعاء وبالتشريع لكم.

4) ولأن الله سبحانه هو الإله الحق في هذا الكون، حيث تنطق كل المخلوقات بعظمته، وتسبح كل المخلوقات بحمده، ويسير كل الكون على مراده قهرا منه سبحانه، فكذلك عليكم أيها البشر أن تتوجهوا إلى الله ربكم وحده بأعمالكم اختيارا منكم، فتعبدوه وحده بالشعائر طلبا وتقربا منه واستعانة واستغاثة به، وتعبدوه كذلك وحده بالتحاكم إلى منهاجه وشرعه في كل أمور حياتكم. وكذلك لا يكفي أن تتوجهوا بأفعالكم إلى الله إلهكم الحق، بل لابد أن تكفروا بأحقية غيره من الطواغيت الآلهة الباطلة في التوجه إليها بالذل والحب أو بالطاعة في تشريعها.